٣٠٠

HARLEQUIN

روايات احلام

أول حب

ديانا هاميلتون

www.rewity.co

منتديات روايتي

أول حب

أصبح «بن دكستر» رجل أعمال قوياً محترماً. لكن المال لم يعد يرضيه...

أمضى «بن» سنوات لا يفكر في زوجة وأسرة لاقتناعه بأن «كارولين هارفي» المرأة التي أحبها، قد خانته. ولم يستطع أن يعثر قطاً على المشاعر المحمومة التي أحسها نحوها.

لكن الوقت حان كي يتخلص من تأثيرها عليه، فقرر أن يبحث عنها وعندما يجدها سيجعلها تدفع ثمن اثني عشر عاماً ضاعت سدى من عمره...

١ ـ والتقينا . . .

ـ الشبه ملحوظ، يا كارولين، وكأنه رسمُك. تعالي وانظري.

أشار إليها «إدوارد وينبرغ» بيده النحيلة الطويلة فوضعت لائحة الضيوف على مكتبه التسيج المنظم بعناية، ثم سارت لتقف أمام اللوحة التي أحضرها أحد العمال لتوّه.

لم يكن كلام مخدومها عن الشبه بينها وبين الصورة هو الدافع الذي حثّها للاقتراب منها. وإنما مجرد الفضول لرؤية هذه التحفة الفنية الرائعة التي كان ميكيل، نجل إدوارد، قد اشتراها منذ أشهر في مزاد علني أقيم في مدينة ريفية صغيرة.

هذه اللوحة الضائعة التي رسمها (ج.ج لامسون) سلف رافائيل قد أحدثت همهمة قوية بين هواة الفنون الذين يدفعون مبالغ باهظة ثمناً لمقتنيات جميلة.

كانت كارولين عائدة لتوّها من شمال انكلترا حيث ذهبت لتنصح ورثة أحد المنازل الراقية حول الأثاث الذي يمكن التخلص ليتمكن من دفع ضريبة الميراث، وبهذا فاتتها الحماسة التي رافقت عملية الشراء.

ـ ما هو الأكثر أهمية، الربح أم الكرامة؟

ونظرت إلى إدوارد بعينيها البنفسجيتين العميقتين من خلال أهدابها السوداء الكثة، لكن ملامحه لم تفصح عن شيء. يبدو أنه

مغرم بالفنون والجمال. وعلى الرغم من قامته الهزيلة التي يمكن أن تطيح بها هبة ريح، كان صلباً. ولو طلب منها أن تصف مشاعره الحقيقية لوضعت الكرامة في الدرجة الأولى من اهتماماته.

يتمتع الفرع الرئيسي في لندن «المعارض فنون ويتبرغ» بصيت ذائع لتقديمه أجود أشكال الفنون الإنسانية. كما أن اقتناء لوحة «للاسون» سيضيف حتماً إلى رصيده.

- سأتركك تتأملين اللوحة.

ابتسم وهو يبتعد، بينما ركزت كارولين انتباهها على اللوحة المكتشفة حديثاً، وإذا بأنفاسها تتجمد لأنه كان محقاً فالشبه ملحوظ تماماً، بل أكثر من مجرد «ملحوظ»... كان غريباً وغير طبيعي.

كانت تمثل فتاة وسط نباتات كثيفة خضراء وقد أمسكت بيديها زنبقة بيضاء. إنها تشبهها تماماً عندما كانت في السابعة عشرة، أي منذ اثني عشر عاماً. تشبهها بشعرها الأسود الطويل الذي يصل إلى خصرها تقريباً، وبشرتها العاجية، وأنفها الرقيق، وشفتيها الورديتين اللتين انفرجتا بابتسامة خفية، وبتلك العينين الحالمتين.

حتى أن اسم اللوحة مناسب (الحب الأول).

سرت في جسدها رعشة غضب مر. هكذا كان حالها بالضبط عندما أحبت ابن «كستر» بكل كيانها وعواطفها المحمومة. كان حباً قوياً ولطالما ظنت أنه سيقتلها.

نعم، هذا ما كانت تبدو عليه حينذاك، قبل أن تعلم الحقيقة... وقبل أن يدير لها ظهره مبتعداً، بمال أبيها... إنه مال كثير لا يحلم بامتلاكه فتى من طبقته. كانت عيناه السوداوان تتألقان سروراً بهذه الصفقة الرابحة، وجسده النحيل الصلب يتبختر بانتصاره. أبعدت

الصورة عنها بسرعة، شاعرة بالغثيان.

تمنت لو أن عينيها لم تقعا قط على هذه الصورة التعيسة التي أعادت إليها ذكريات مدفونة في أعماقها، ذكريات عليها أن تكافح أكثر لتدفنها.

كان إدوارد منشغلاً على الهاتف عندما مرّت بقربه، متجهة إلى مكتب ميكيل لتتحدث معه عن الترتيبات النهائية للمعرض. وبقيت معه حتى اتصلت بها سكرتيرتها «لين» قبل موعد الغداء مباشرة لتخبرها بأن الرسائل التي طلبتها للتوقيع أصبحت جاهزة؛ وأن فاتورة الحساب قد وصلت لتوها من المحاسبة كما أن السيد إدوارد يريدها أن تبقى هذا المساء في العمل، لأن زبوناً سيأتي لشراء لوحة (الحب الأول).

إذا أعرب الزبون عن رغبة حقيقية في الشراء ورضي بدفع مبلغ جيد، فستدعوه إلى عشاء فاخر في أحد أهم مطاعم لندن. وبما أنها السكرتيرة المسؤولة، ستحرص على أن تتجنب الأسئلة، بينما يتولى إدوارد إقناع الزبون بالشراء.

تركت كارولين الهاتف وهي تفكر متأملة. فإدوارد لن يضع اللوحة في المعرض الخاص. لا بد أن شخصاً ما يحرص على شرائها. استندت إلى الخلف في كرسيها ونظرت إلى ميكيل رافعة حاجبيها المقوسين بعناية.

المعارض الخاصة كانت تماثل المزاد العلني ولكن أسعار القطع المعروضة لا تذكر أبداً، بل قيمتها فقط، وفي آخر النهار، يكون المبلغ المعروض قد حلّق عالياً.

أحياناً، يلمحهم الزبون بأنه مستعد للوصول عالياً، لدفع الكثير للحصول على قطعة معيّنة في اجتماع خاص، كما سيجري الليلة.

أردف ميكيل معلقاً: «العجوز يتصرف بحذر. لا بد أنه يتحسس الأمور أو ينتظر ما سيحدث بعد نشر صور اللوحات الفوتوغرافية. من يعلم؟».

واستند إلى الخلف، وعيناه العسليتان الذائبتان تنظران بإعجاب إلى بذلة كارولين الأنيقة، ولمعان شعرها الأسود المرفوع. كانت كارولين هارلي رائعة الجمال، تتمتع بذكاء خارق، كما كانت تمثّل تحدياً للرجال، فجمالها محصّنٌ بستار غني منيع. تساءل ميكيل عما إذا كانت قد سمحت يوماً لأحدهم بعناق. إنه يشك في ذلك.

وأمسك بقلم يديره بين أصابعه وهو يتساءل كيف يظفر بواحد.

بادلته نظرته الذائبة، ورمقته بعطف ممزوج بالمرح. يتمتع ابن إدوارد ببنية قوية، وهو وسيم تقريباً. يحب الملابس العادية لدرجة الإهمال. عرفت كارولين أن السبب الرئيسي في ذلك يعود إلى أنه لن يتمكن أبداً من مجاراة أبيه في الأناقة، لذا سار في الطريق المعاكس.

جمعت الأوراق التي بين يديها، بينما كان ميكيل يقول: «هناك مطعم جديد عند زاوية الشارع، ربما بإمكاننا أن نتناول طعام الغداء فيه».

ونهض واقفاً لكن كارولين هزت رأسها. منذ أن تطلق العام الفائت وهما يتناولان الغداء معاً، وعندما يعودان إلى المكتب كانت أحاديثهما لا تتعدى العمل والاهتمامات المشتركة، لكن تلك الأحاديث ما لبثت أن تطورت إلى الشؤون الخاصة وقد لمح مرة إلى تطوّر صداقتهما.

حينذاك تنهدت بخفة. فهي إذ قاربت من الثلاثين كان أمامها خياران... إما أن تبقى عازبة، عاملة، لها دائرة ضيقة من الأصدقاء، ولكن دون أسرة، وإما زوجة مع أولاد فتعود إليها الثقة برجل مرة

أخرى...

ولكنها هزت رأسها بالنفي: «آسفة، لدي عمل كثير لهذا المساء، والوقت ضيق».

* * *

عملت بسرعة وكفاءة؛ أكسبتها ساعة من الوقت فخرجت من العمل واتجهت إلى شقتها الصغيرة الكائنة قرب حديقة «فرين بارك» العامة لتغير ملابسها وتعود إلى «معارض وينبرغ» عند السادسة والنصف.

كانت تفضل أن تمضي الأمسية الرائعة بصحبة كتاب جيد، وإن كان الأمر بخلاف طباعها، لأنها كانت تعيش وتتنفس العمل. لكنها لم تكن متشوّقة إلى هذه السهرة، ولم تكن حمقاء لتدّعي أنها تجهل السبب. يتحتم أن تبيع لوحة (الحب الأول) في أسرع وقت لأن الذكريات التي أثارتها في نفسها عذبتها. كانت تعتقد أنها نسيت الآلام التي سببها لها تحطم قلبها والخيانة، لكن ذلك لم يكن صحيحاً.

ارتدت ثيابها بعناية فالأناقة جزء من عملها. لبست بنطلوناً من الحرير وبلوزة رسمية وانتعلت حذاء عالي الكعبين على الرغم من طول قامتها الفارع. عادت إلى المعرض تتأكد من أن متعهد المناسبات إيفان قد أحضر الطعام قبل وصول إدوارد وزبونه.

قالت له باستحسان: «جميل كالعادة يا إيفان».

وجالت بعينيها القلقتين على الأطباق الفاخرة لأنها لم تستطع النظر إلى تلك اللوحة المعروضة التي تغشيها أنوار خافتة. مجرد التفكير في ذلك الشبه الغريب الذي أعادها تلك الصبية الساذجة التي

كانتها، ملأها بالغضب.

قالت لإيفان متكلفة الابتسام: «حالما تعد العصير يمكنك أن تذهب. وسيفتح لك الباب أحد الحرّاس عندنا».

انتصبت في وقفتها، مرغمة تلك الأفكار المؤلمة على الانزواء في ذهنها. إنها مجرد لوحة! و«بن دكستر» لم يعد يعني لها شيئاً منذ اثني عشرة سنة. وهذا الغضب المحتمل في نفسها دون أن تشعر به ما هو إلا وليد تصوراتها.

- هل كل شيء جاهز للمعرض الخاص الأسبوع القادم؟

- نعم، طبعاً، يوم السبت.

تراجع خطوة ويداه على خصره. كان جسمه رشيقاً وعيناه تشعّان بالحياة. تساءلت كارولين كم من القلوب حطمها في شبابه، عندما نظر إليها عابثاً بعينيه البنيتين: «سيكون كل شيء على ما يرام، لأجلك فقط، وبعدك لا قيمة لأي شيء».

- يا له من تزلّف!

علّقت ساخرة. ستكون الأمور على ما يرام لأنه جاد في عمله وكثير الدهاء.

بددت هذه اللحظة القصيرة الضيق الذي شعرت به لوجودها هنا، وكانت مسرورة إلى أن سمعت، عبر الباب، صوت إدوارد يقول: «كارولين، عزيزتي، أقدم إليك «بن دكستر»، «بن»، هذه مساعدتي الرائعة، «كارولين مارڤي»».

أغمضت عينيها. لم تستطع أن تمنع نفسها من ذلك. أحست بالجدران تُطبق عليها، وبالأرض تدور تحت قدميها، وخفقات قلبها الصاخبة تخنقها.

«بن دكستر»... الرجل الذي أخذ منها كل ما تملك... حبها، وقلبها، وروحها... ثم تسلّل حاملاً معه ما دفعه له أبوها. فكرت بعنف في أن عليها أن تحمد الله لأنها لم تستسلم له كما فعلت «ماغي بوب».

أرغمت نفسها على فتح عينيها، محاولة التمسك بأمل واهٍ في أن يكون هناك رجلان يحملان الاسم نفسه. فإذا بها تواجه المرارة في عينيه السوداوين، وترى الازدراء على ثغره الجميل. فتملكتها رغبة في ضربه لما فعله بها.

كان بن شوكة في خاصرة الآباء. يختفي شهوراً، ليعود بشكله الغجري ووسامته الأسمرين، فيسحر فتيات القرية ويوقع بهن!

حينذاك لم تكن تعرف ذلك. لقد قال لها إنه يحبها، ويريدها حتى تستحيل نجوم الليل رماداً. فصدقته!

شعرت بنفسها ترتجف غضباً، وكلمات الإدانة الجارحة تخنقها. لكن يد إيفان التي استقرت على ظهرها تسندها، أعادتها إلى رشدها، فابتسمت لإدوارد، وواجهت عيني «بن» الساخرتين. وبينما ابتعد إيفان مدّت يدها تصافح الرجل الذي تحتقر، شاعرة بالبغض للمسته وقبضته ولشعورها بدفء يده.

- مرحباً، سيد دكستر.

منعتها قبضته المؤلمة من التلفظ بأي شيء تافه أو سخيف فكرت في قوله. أحرقتها يده، ولم تستطع أن تجذب يدها منه بسرعة كافية.

- أهلاً بك آنسة مارڤي.

كانت لهجته رسمية، ولكن وراء ذلك الاحترام الزائف في صوته، يختبىء إحساس ما، فيه من الحلاوة ما جعل أعصابها

منتشية. إنها تذكر هذا الصوت، والأشياء التي كان يقولها. . .
الأشياء المغرية الماكرة. . . والأكاذيب، كل تلك الأكاذيب الملفقة.

أشاح بوجهه عنها وقد التوت شفتاه وكأنه يسخر منها، وهمس شيئاً لإدوارد، ثم تقدم نحو اللوحة المعروضة. يبدو إنه لن يعترف بحقيقة أنهما يعرفان بعضهما، وأن حباً عنيفاً جمعهما في ذلك الصيف، عندما كان العالم، بالنسبة إليها، ممزوجاً بالسحر.

حسناً، وما الذي يجعله يعترف؟ هي أيضاً، لم تعترف بذلك حين عرّفهما إدوارد ببعضهما لأنها كانت تشعر بخزي عميق لما كانت عليه حينذاك من غباء وسذاجة. قد يكون نسيها تماماً، فما هي إلا واحدة من بين نساء كثيرات أحبّهن فرماهن جانباً.

* * *

انتهت الصفقة ولم تعرف كارولين كيف استطاع هذا الصبي الذي نشأ في كنف أمه الأرملة في كوخ مهجور، أن يدفع هذا المبلغ.

مهما كانت طرق اكتسابه للمال، فهي تتصورها غير شريفة، ومثيرة للاشمئزاز. لكنها لن تستنفد طاقتها في تخمين ذلك.

اصطحبهما إدوارد للعشاء في مطعم راقٍ احتفاءً به وجلست كارولين إلى المائدة الأنيقة في مواجهة «دين». كانت تراقبه خفية من تحت أهدابها السوداء.

لقد غيرته السنوات فأصبحت كتفاه أكثر عرضاً وجسده أكثر قوة، ووجهه الوسيم أقل تعبيراً مما كان عليه في التاسعة عشرة أما فمه الساحر فبان عليه العزم الآن بشكل ملحوظ.

ارتجفت قليلاً وأرغمت انتباهها على التحوّل إلى الطبق الذي طلبته. لم تكن تريد أن تأتي إلى هنا، حتى أنها فكرت للحظة في الرفض مدّعية بأنها تعاني من ألم في رأسها.

لكنها لم تشأ أن يعتبرها دكستر جبانة.

تملكتها الكآبة بينما تشعب الحديث بين الرجلين المسترخيين إلى مواضيع مختلفة كالسياسة والمسرح. وجلّ ما كانت تتمناه، هو أن تنتهي السهرة على خير.

ـ وكيف أصبحت على صلة «بمعارض ويتبرغ» الراقية، يا آنسة هارفي، أو، هل بإمكاني أن أدعوك كارولين؟

وخزها حديثه الكريه. من الممكن أن يفسّر هذا السؤال بالإهانة، لأنه يتضمن الدهشة من أن توظفها أي شركة محترمة!

ـ بالطرق المعتادة، يا سيد دكستر.

واشتبكت عيناهما. إذا كان يخفي بين كلماته معنى مبطناً، فمن الأفضل له إذن أن يدرك أنها قادرة على مواجهة التحدي: «درست تاريخ الفنون وعلم المتاحف والمعارض في الجامعة. ولحسن الحظ، أن أدوارد كان يبحث عن مساعدة، وصادف أنني كنت المناسبة لذلك».

ـ ألم تتزوجي قط، يا كارولين؟

لمحت لمعان عينيه السوداوين. لم يدعها يوماً باسم كارولين بل كان يدعوها «كيري» بكل نعومة وإغراء.

خفق قلبها بألم. آه، يا ليت بإمكاننا أن نمحو ذكرياتنا متى نشاء! قالت ببرودة وازدراء: «لا، فأنا لم أقابل بعد ذلك الرجل الذي يرضيني. وأنت، يا سيد دكستر، هل أنت متزوج؟».

رأت فمه يتصلّب. لقد أصابت منه موضعاً حساساً، وعلى بعد خطوة منها، أحست بإدوارد يقطب جبينه. إذ لا يفترض بها أن تتحدث مع الزبائن في الأمور الشخصية!

حسناً، لكنه هو الذي ابتدأ.

- الحياة الزوجية لم تجذبني قط. وأنا لن أدخل الأمر طوعاً.

ردّ بلطف بالغ. من الواضح أنه نسي تلك الوخزة المزعجة، وبعثت ابتسامته البطيئة الاضطراب في نفسها.

طبعاً، فهو يفضل أن يغيّر المرأة بنفس السرعة التي يغيّر بها جواربه. كانت الكلمات على طرف لسانها، لكنها عادت فابتلعتها، لأنها ما إن تنطق بها حتى تُطرد من عملها فوراً.

انتهزت فرصة قدوم النادل ليخلي المائدة، وتحججت بالذهاب إلى الحمام. لقد عرفها طبعاً. رأت ذلك في عينيه، فهي لم تتغير كثيراً. نحل جسدها قليلاً، وبدت عليها الحنكة كما قصت شعرها حتى الكتفين وكومته على رأسها.

فكرت ساخرة في أنها لا شيء، أم تراه يتذكر وجوه كل اللواتي خرج معهن ونبذهن منذ سنين؟

هذا غير مهم، كما حدثت نفسها وهي تغسل يديها تحت الماء البارد.

بقي أمامها عدة دقائق لانتهاء هذه الأمسية التعيسة معه وبعدها لن تراه أبداً.

أخرجت الخلوي من حقيبتها الجلدية، واتصلت بشركة سيارات الأجرة التي تتعامل معها دوماً.

بعد لحظات، عادت إلى مقعدها. ناولها إدوارد قائمة الحلويات

فأغلقتها ووضعتها على المائدة قائلة: «سأخرج الآن، وأترككما تستمتعان بوجبتكما. لدي الكثير من العمل غداً».

لم يكن لديها عمل، في الحقيقة، وإدوارد يعلم ذلك، خصوصاً عندما تُوجّه لها دعوة في الأفق.

وقفت برشاقة، راسمة على وجهها ابتسامة مهذبة: «تشرفت بمعرفتك، سيد دكستر».

وقف الرجلان. وقال «ابن دكستر» بلطف، وفي صوته نبرة ساخرة: «آنسة هاردي، سيأتي سائقي بعد عشر دقائق، ويسرني أن أوصلك في طريقي بعد أن نشرب القهوة».

ذات يوم، كانت لتورّط نفسها في المتاعب لأجل موعد معه. أما الآن فردّت بعذوبة مصطنعة: «هذا لطف منك، لكن سيارة الأجرة التي استدعيتها متوقفة أمام باب المطعم. استمتع بقهوتك».

ثم منحته ابتسامة رضى قبل أن تخرج.

لم يكن لديها فكرة عن السبب الذي جعله يعرض عليها أن يقلّها. بالتأكيد، لا يمكنها أن تتهمه بالشهامة! كما أنه لا يمكن أن يكون راغباً في استعادة الماضي البعيد. مهما كان الأمر، فقد رفضت عرضه بكل تهذيب.

حان الوقت لكي يعرف «ابن دكستر» أنه لن يتمكّن دوماً من الحصول على ما يريد.

* * *

٢ ـ لا حنين... لا أسف!

ارتاحت كارولين عندما رن جرس المنبه إذ أخرجها من ليلة سيئة حافلة بالأحلام، أو بالأحرى بالكوابيس، فرؤية «بن دكستر» تسلب النوم من العينين.

لقد حلمت به يعانقها. وصوته المثير يخبرها بأنه يحبها، وبأكاذيب مماثلة...

نهضت من السرير وتوجهت إلى الحمام حيث اغتسلت وهي عازمة على ألا تفكر فيه مجدداً. لن تفعل ذلك. لا حاجة لها به. لقد اشترى اللوحة التي أعادته، لوقت قصير، إلى حياتها. واليوم، ستوضع اللوحة في صندوق لترسل إليه وتنتهي القصة.

* * *

كان انشغالها هذا الصباح مصدر سرور لها، لأنه لم يفسح لها مجالاً للتفكير فيه، ثم لبّت دعوة ميكيل إلى الغداء في ذلك المطعم الجديد الذي افتتح مؤخراً.

وعندما طلب قهوة بعد الطعام، رفضت ذلك قائلة: «عليّ أن أعود الآن».

وأوشكت أن تنهض لكنه أمسك بمعصمها: «لقد تأخرنا الآن، ولن تغيّر عدة دقائق في الأمر. ثم لدي شيء أريد أن أقوله لك».

عرفت من النظرة التي في عينيه، ما هو ذلك «الشيء»، لذا لم

تشأ أن تسمعه إذ لم تكن مستعدة لذلك.

انزلقت يده وأمسكت بأصابعها، ثم قال بسرعة: «تعرفين أنني منجذب إليك وأن علاقتنا معاً جيدة لذا أريد أن أوطدها. لا أدري ما رأيك بي، ولن أطلب منك شيئاً، ولكنك تمثلين كل ما يعجبني في المرأة. أنا واثق تماماً من أننا سننجح في بناء حياتنا معاً. قد لا تظنين ذلك الآن، ولكن هل لك أن تحاولي؟».

سحبت أصابعها من يده بحذر. ماذا عساها تقول؟ بالأمس كانت تفكر في مسار حياتها، مدركة أن عملها مع ابن مخدومها وصل إلى نقطة التحوّل إلى شيء أعمق، وقارنت ما بين حياة العزوبية الموحشة وبين الاستقرار والأمان الدافىء في ظل زوج وأسرة.

لو قال لها هذا الكلام في الأمس، لشعرت بالارتياح ووافقت على مجاراته ليتأكدا معاً إذا كانا سينسجمان كزوجين. فلماذا التردد الآن؟ ما الذي تغيّر؟

شيء ما قد تغيّر فعلاً.

وتمتم عندما ساد صمت مطبق: «ألا أعجبك على الإطلاق؟».

كان يبدو كولد صغير، فابتسمت له وقالت محاولة أن تغطي شعورها الواضح الذي سبب له الحزن:

ـ لم أفكر في هذا قط.

فأجاب وكأنه يأمرها: «لكنك ستفكرين بالأمر. لماذا لا تتناولين العشاء معي الليلة؟ منذ تركتني «جستين» وأنا أطهو بنفسي، يمكنني أن أحضر اللحم، ولكن إذا كنت تفضلين، يمكنني أن أعد البازيلا، الخيار لك».

ضحكته الصبيانية المفاجئة جعلتها تتأمل. لم تكن تعرف سبب

انهيار هذا الزواج بعد سنتين فقط. لقد أدلى إدوارد برأيه في الأمر قائلاً إنه من حسن الحظ أنهما لم ينجبا أولاداً. وعدا ذلك لم يذكر شيئاً عن سبب الطلاق.

بأي حال، لم يكن ميكيل يستحق أن يتألم مرة أخرى. فقالت: «فليكن يوم الاثنين، بعد المعرض. هل هذا مناسب؟».

ووقفت ثم التقطت حقيبتها: «هنالك شرط. سنكون صديقين لا أكثر، يا ميكيل. فببساطة، أنا غير مستعدة بعد للالتزام».

غير مستعدة؟ وهي التي تفكر منذ أسابيع في المستقبل الطويل أمامها، الأولاد، الحياة العائلية السعيدة. وإن كانت لا تعرف الكثير عن ذلك...

وقف وهو يخرج محفظته من جيبه ليدفع الحساب: «الشرط مقبول، ولكن لا تلوميني إذا ما حاولت أن أغير رأيك».

وعندما رأت ابتسامته الرضية، أدركت أنها ارتكبت غلطة. لا بأس بالغداء، أما العشاء... وفي شقته؟

وساورها القلق، فقبل أسبوع، كانت ستعتبر هذه الدعوة تقدماً طبيعياً لصداقتهما، وكانت ستتوقع، بسرور، أن تتعرف إليه في بيته. أما الآن فقد قبلت دعوته بصفته صديقها، لذا لم تشأ أن تكدره برفضها الصريح له.

* * *

في المعرض، وجدت ورقة على المكتب تفيد بأن إدوارد يريد أن يراها الآن.

وفي المصعد الذي يقودها رأساً إلى مكتب إدوارد، أبعدت مشكلتها مع ميكيل عن ذهنها. ستواجه ذلك بالرقة والسهولة اللتين

اعتادت عليهما منذ تركت بيت والديها وهي في الثامنة عشرة.

لقد واجهت كل شيء ما عدا...

- «بن دكستر».

بادرها إدوارد حالما انغلق باب المصعد خلفها: «إنه بحاجة إليك لتقييم محتويات شركته، أعني إحدى شركاته التي اقتناها منذ عام ونصف تقريباً، على ما أذكر جيداً».

رتب أوراقه جيداً ثم سألها: «هل أنت متوعكة؟ تبدين شاحبة، اجلسي من فضلك؟».

الصدمة التي تملكتها لسماعها ذلك الاسم، جعلت الدم يهرب من وجهها.

ثم عن أي شركة يتحدث إدوارد؟ ربما هي خدعة. هل عليها أن تحذر رئيسها؟ وتعترف له بأنها تعرف «دكستر» وهو كاذب مخادع؟

قالت وهي تتمالك نفسها وتجلس على الكرسي: «أنا بأحسن حال. ماذا تقول؟».

هي لن تقوم بذلك العمل. إذا كان يريد تقييم بعض القطع الأثرية، واللوحات، فعليه إذن أن يستدعي شخصاً آخر ليقوم بالعمل.

نظر إليها إدوارد مطولاً، ثم قال: «اشترت شركته هذا المنزل المتداعي وأراضيه في «شوربشاير». وقامت مؤسسة «المزارع المتفرقة» التابعة له بفرز ما يصلح منه لإنشاء أماكن عمل وملاعب رياضية ومراكز خاصة بالعطلات».

شعرت كارولين بالدهشة لسماعها هذا الكلام. فقلة من الناس يجهلون شركة (المزارع المتفرقة) التي كانت محط إعجاب أرباب الأعمال وأنصار البيئة معاً.

لا بد أنها أساءت الحكم عليه، معتقدة أنه اكتسب ثروته بوسائل وضيعة. لم تكن هذه الفكرة مريحة، لأن «بن دكستر» بنظرها مخادع، وقد تعايشت مع هذه الفكرة فترة طويلة فأصبح إعادة النظر فيها، أشبه ببتر عضو منها.

ولكن أي منزل يتحدثان عنه هنا؟ وفجأة، باتت واثقة من أنها تعلم ذلك. هل اشترت شركة «دكستر» أكثر من مزرعة في «شروشاير»؟ الأمر جائز طبعاً، لكنه ليس محتملاً جداً.

ـ أترانا نتكلم عن «لانغلي هايز»؟

كانت ابتسامتها المصطنعة مناسبة تماماً وهي تمزجها بشيء من الاهتمام.

ـ أتعرفينها؟

اكتفت بإيماءة خفيفة. فقد ولدت وعاشت هناك... باستثناء الوقت الذي أمضته في المدرسة الداخلية، إلى أن أخرجتها تعاستها وأوامر أبيها من موطنها.

لم تكن تتذكر أمها، فقد ماتت لورا هارفي بعد وقت قصير من ولادة كارولين. وكانت صورها تُظهر ما كانت عليه من جمال.

لم تعد إلى بلدها مطلقاً، فقد أنذرها أبوها بألا تريه وجهها مرة أخرى. ذهبت لحضور جنازة أبيها بدافع الواجب، ولم تعد إلى البيت قط. لأنه بيع مع الأراضي إلى شركة «المزارع» تلك بمبلغ ضخم ذهب سداداً للدين أخذه أبوها لقاء رهن الأملاك. أما المبلغ الصغير المتبقي فذهب لدوروثي سكيت مدبرة منزله.

يبدو أن إيماءتها الصامتة كانت كافية، لأن إدوارد قال: «أخبرني دكستر بأن محتويات المنزل كانت موجودة عند البيع، بعضها كان

بحالة ممتازة، والبعض الآخر خلاف ذلك، رغم أنه ليس خبيراً، باعترافه هو. ولهذا يريد منك تقييمه».

أقنعت نفسها بأن تكون حذرة جداً، وإلا فقد تنفجر غضباً.

ـ هل تحدثتما في الأمر الليلة الماضية بعد أن تركتكما؟

سألته هذا بهدوء وهي تشبك يديها الناصعتي البياض على تنورتها القاتمة اللون. لقد أدركت تصرُّف دكستر واحتقرته لهذا.

ـ لا، بل اتصل بي هاتفياً هذا الصباح. فقد غادر المطعم الليلة الماضية حالما غادرته أنت تقريباً. سيذهب سائقه إلى شقتك في العاشرة من صباح الاثنين. ولا أظن أنك بحاجة إلى التغيب أكثر من ثلاثة أو أربعة أيام. وعلى كل حال، يمكنك أن تمضي الوقت اللازم، فدكستر زبون يهمني أن أرتق صلتي به.

هكذا إذن! وقالت بهدوء: «الأسبوع القادم عليّ أن أعاين المعروضات، لذا لن يتسنى لي الغياب».

ـ «إدنا» ستنوب عنك، لقد طلبك دكستر أنت بالذات ربما لأنه تعرف إليك الليلة الماضية.

ونظر إليها متفحصاً: «ألم تحبذي الفكرة؟».

مطلقاً! إنها تكره الامتثال لرغبة دكستر، وإرغامها على التنقيب في حياة أبيها «ريجينالد هارفي». ألا يكفي أن ذلك المتوحش، الذي كان يحطم القلوب، اشترى الأملاك كلها، حتى يجعلها، في وضع المستخدم الذليل؟ إنه يريد أن يقلب الأوضاع.

ـ فقط لأنه يؤثر على عملي هنا.

لم تستطع أن تخبره الحقيقة. فقد أغلقت الباب الذي يفصلها عن ماضيها المزعج منذ سنين وهي لا تريد أن تكشفه لأحد الآن.

ـ لن يؤثر ذلك بشيء. أنت بدي البعض الآن، ولكن ما من أحد لا يمكن الاستغناء عنه.

ـ طبعاً.

وافقته على ذلك بابتسامة متوترة. بإمكانها أن ترفض الذهاب وتكتسب بذلك نقطة سوداء. صحيح أن إدوارد رب عمل رائع، لكنه لا ينسى ولا يصفح عمن يغضبه.

أذعنت الآن، آملة ألاّ يكون دكستر في «لانغلي هايز». ولكن تحسباً للأسوأ، وبعد أن همّت بترك مقعدها عادت لتسأله: «هل أفهم من ذلك أن لدى دكستر هدفاً مالياً؟ فالمبلغ الذي دفعه لقاء تلك الأملاك لا يمكن اعتباره تافهاً».

المثل يقول: (إعرف عدوّك)، كما أخذت تفكر. وعدوّها هو دكستر. ثمة شيء يجري هنا. بغض النظر عن الطريقة التي عاملها بها في الماضي، إنها تشعر بذلك في أعماقها. بإمكان إدوارد أن يرفض الحديث عن زبونه ولكن لحسن الحظ أنه لم يفعل فقال: «هذا الرجل فاحش الثراء كما يبدو. لقد ابتدأ من الصفر، كما ذكرت المقالة الوحيدة التي قرأتها عنه منذ حوالى العام في مجلة اقتصادية. بنى امبراطورية من إنتاج الملابس الداخلية. وهو يعتبر من النوابغ في هذا المجال، إنه صخرة صلبة. لكنه شعر بأنه في حاجة إلى مزيد من التحدي، فراح يشتري الأملاك. وهو الآن بليونير كما يقال».

ـ ألم يفكر قط في الزواج؟

تمنت لو ترفس نفسها لهذا التعليق، فالفضول ليس من عاداتها وأخجلها انحدارها إلى ما يسميه رئيسها ثرثرة عقيمة. بان استياء إدوارد في قوله: «لا أعلم شيئاً عن حياة الرجل الخاصة».

نهضت كارولين وسوّت تنورتها ثم تناولت حقيبة يدها، وسألته: «هل تعلم ما إذا كان ينوي أن يتخلص من أي شيء، قيّم، أم لا؟».

كان المنزل مليئاً بأشياء جميلة كما تتذكر. لكن، لعل أباها باعها إذ كان يعاني من ضائقة مالية.

ـ هو ينوي على ما أظن أن يبقي أفضل القطع في مكانها. والأمر يعود إليك في أن تخبريه عما يمكن أن يحتفظ به للاستثمار.

وأخذ يعبث بكومة صغيرة من الأوراق، وهي دلالة واضحة على أن وجودها لم يعد مرغوباً فيه.

غادرت المكتب متسائلة عما يجعل التفاصيل الدقيقة في حياة دكستر الخاصة تؤلمها.

• • •

كانت أملاك «لانغلي هايز» في مرحلة الإصلاح، كما رأت كارولين حين توقفت بها السيارة أمام الباب الرئيسي، حيث أحاطت سقالة بواجهة المنزل القديم الطراز. المرج الأخضر الذي سارت فيه حين اقتربت من البيت، والذي كان مرتفعاً حين رأته للمرة الأخيرة أصبح الآن مجزوزاً أنيقاً. وعلى مسافة منها رأت رجلين يسوّيان الأرض.

هل يتم تمهيد الأرض لتعليم الغولف؟ أم لبناء نادٍ لقضاء العطلات؟ مهما يكن، لم يعد الأمر من شؤونها. كما أن حياتها هنا، لم تكن مفروشة بالورود. لم تشعر بأي حنين أو خسارة، بل بذلك القلق الداخلي المزعج... أترى دكستر هنا؟

ـ العمل كثير هنا.

قالت ذلك وهي تقف في الفناء الأمامي تحت شمس نيسان الدافئة، بينما فتح السائق صندوق السيارة ليخرج أمتعتها. وقد ذكرت أول ما خطر في بالها لتخمد الخفقان العنيف في صدرها.

فأجاب وهو يغلق الصندوق: «لقد انتهى البيت الرئيسي تقريباً. كان عليك أن ترَي حاله. لكن الرئيس حسّن كل شيء. فهو إذا صمم على أمر واظب على إنهائه».

ورفع حقائبها: «تفضلي يا آنسة، سأقدمك إلى السيدة «بيتي» مديرة المنزل وهي ستهتم بك».

كان زجاج النوافذ يتألق كما لم تره قط أثناء حياتها هنا. كما أن الباب الرئيسي قد طلي حديثاً.

إذن، لم تعد السيدة «سكيت» تعمل هنا.

عندما دخلت الردهة الفسيحة، أخذت تتأملها. كان واضحاً أن «بن دكستر» يحب التخلص من كل شيء، فطبعه القلق الذي لا يهدأ يدفعه إلى التخلي عن القديم واتخاذ الجديد. وهذا ينطبق على النساء، أيضاً... كما أخذت تفكر بمرارة.

لم يكن أمام الباب سوى شاحنة البنائين، ففكرت في أن سيارته ربما في مرآب المبنى القديم.

سألت، محاولة تجاهل التوتر الذي شعرت به في حلقها: «هل السيد دكستر هنا؟».

وحبست أنفاسها.

- لا أدري، يا آنسة. فأنا أتلقى الأوامر عادة من مساعده الشخصي. ما أنا سوى سائق. والآن... إذا أمكنك أن تنتظري لحظة لأنادي السيدة «بيتي».

أغمضت كارولين عينيها وهي تتنفس بعمق، ثم فتحتهما وألقت نظرة شاملة على المكان. كان السلم الخشبي المركزي قد لُمّع حديثاً بالشمع، كذلك البلاط الأبيض والأسود تحت قدميها الذي يتألق نظافة. كان كل شيء مختلفاً عن ذلك المنزل القذر المهمل الذي نشأت فيه.

لكن صدى الماضي كان لا يزال هنا. حتى أنها سمعت صوت أبيها اللاذع يقول:

- عليك أن تفعلي ما أقوله، يا كارولين، ما أقوله بالضبط.

والأسوأ من ذلك قوله: (لن أحتمل ذلك. لا يناسبك أن تلعبي مع أولاد القرية. وإذا عصيتني مرة أخرى ستنالين عقاباً شديداً). ثم صوت السيدة سكيت الضارع: (لا تغضبي أباك يا صغيرة، أنت تعلمين أن الأمر لا يستحق العناء).

توتر فمها المتدلي. لقد أغضبته في النهاية وإلى حد جعله يقصيها من هذا البيت. كانت مسرورة لرحيلها، وساعدها الإرث الذي تركته أمها لها على إتمام دراستها.

هل كانت الأمور لتختلف لو بقيت أمها حية أو لو أنها ولدت صبياً كما كان أبوها يريد؟

- يبدو أنك دست على كبرياء أسرة هارفي. كنت أظن أنك لن تأتي.

طعنها ذلك الصوت الرقيق الغامض في الصميم وهي تلتفت لتواجهه. لقد دخل من الباب الرئيسي وراءها فهيمن على الردهة، رغم اتساعها.

شعرت بألم حاد في قلبها، لكنها تمالكت نفسها. لم تعد

أسيراً سحره، ودمثه المطيعة.

احتمال وجوده هنا جعلها تعتني بملابسها للتأثير. فارتدت بذلة زرقاء مفصلة بدقة، وحذاءً عالياً، وعقدت شعرها إلى الخلف وتزينت بسلسلة ذهبية تتألق برقة على بشرتها العاجية.

- العمل عمل وأنت تتعامل مع محترفة، يا سيد دكستر.

- هذا ما أراه.

وبدت التسلية على فمه بينما عيناه السوداوان تتفحصانها من رأسها إلى أخمص قدميها ثم تعودان لتشتبكا بعينيها.

- هذه الأناقة وهذه الثقة بالنفس... كل شيء فيك ينطق بأنك ابنة ملاك من الطبقة العليا. أنا أتذكر الأوقات التي...

قاطعته محاولة أن تتجاهل الطريقة التي ألهبت بها لهجته البطيئة مشاعرها:

- يا سيد دكستر، هل لي أن أقترح أن نبقى ضمن العمل الذي جئت لأجله؟.

وسكتت فجأة، وقد شعرت بالارتياح وهي ترى امرأة في مطلع الثلاثينات من عمرها تسير نحوهما.

كان شعرها الأشقر القصير يحيط بوجهها البشوش، وقوامها النحيل قد اكتسى ببنطلون جينز أزرق وقميص كحلي. الآنسة «بيني»؟ ما أبعدها عن دوروثي سكيت المتعجرفة، ذات الجمال الذابل!

- آسفة لجعلك تنتظريني، لم يستطع «مارتن» العثور عليّ. الغداء بعد ربع ساعة يا سيدي.

التفتت بابتسامة حارة إلى كارولين: «سأريك غرفتك، يا آنسة مارلي».

وحملت الأمتعة ثم اتجهت نحو السلم.

تبعتها كارولين، وهي تشعر بالدوار، ما جعلها تمسك بالدرابزين. يكفي سوءاً أن دكستر سيكون حاضراً حتى عند انعدام الحاجة إلى وجوده. بإمكانها أن تقوم بالعمل الذي جاءت لأجله دون تواجده. ولكن إذا حاول إثارة الماضي، وانتقاد مظهرها، فلن تحتمل الأيام القليلة التي ستمضيها هنا.

* * *

٣ ـ رسالة من الماضي

فتحت مديرة المنزل باباً في آخر الرواق الطويل: «ها قد وصلنا. إنه ليس جناحاً، مع الأسف. ولكن يوجد حمام بجانب الغرفة».

تنفست كارولين بحدة وهي تقف على العتبة. هل هي مصادفة أم أن دكستر أعطى تعليماته بأن تنزل في هذه الغرفة بالذات؟

إنه يعلم أنها كانت غرفتها، فكم من المرات كان يقذف نافذتها بالحصى لكي يوقظها؟ لم يحدث يوماً أن كانت نائمة، فقد كانت دوماً بانتظار إشارة منه، يملأها الشوق إلى ذراعيه والقلق من الآتي. كانت مستعدة لنزول السلم ركضاً، لتكون معه، وليذوبا معاً في سحر الأمسيات الصيفية الساحرة.

اكتسحتها موجة ثلجية أعقبتها هبة ساخنة. وهزت رأسها منزعجة من تلك الذكريات ولاح الازدراء في عينيها الزرقاوين.

إنها تتحلى الآن بالقوة لذا لن تدعه يؤثر عليها بأي شكل.

لقد تغيرت الغرفة، فألوانها أصبحت الآن خليطاً من الوردي والأصفر، وحلت السجادة الخضراء الشاحبة مكان تلك المشققة التي كانت تتجمد تحت قدميها الحافيتين في الشتاء.

ـ ستتناولين الغداء مع الرئيس في غرفة الطعام وهي عند الباب

الثالث إلى اليسار بعد الردهة. هو سيعطيك إرشادات بالنسبة إلى عملك، طبعاً. ولكن إذا كنت تريدين شيئاً آخر، أعلميني.

قالت مديرة المنزل ذلك وهي تضع الأمتعة بجانب السرير.

ـ شكراً. أنت الآنسة «بيتي» أليس كذلك؟

يجب أن تتحكم في نفسها، ولن تنهار لأنها ستنام في غرفتها القديمة لليلة أو اثنين. وتكلفت الابتسام وهي تدخل بدلاً من التسكع عند العتبة وكأن هناك من يرغمها على دخول الغرفة.

بإمكانها ألاّ تتذكر شيئاً ما لم تشأ ذلك!

أجابت المرأة وهي تمدّ يدها لتصافحها: «إدعيني «بيتي» فقط».

وضحكت وهي تصافحها.

ـ وأنا كارولين. أخبريني. هل يقيم السيد دكستر هنا أم أنها زيارة خاطفة؟

تمنت أن تكون الإجابة الأخيرة، لكنها لم تراهن على ذلك.

ـ يأتي ويذهب بزيارات خاطفة، من وقت لآخر ليطمئن على سير العمل. لكنه هذه المرة، جاء ومعه حزمة من الأمتعة. سأضع الغداء على المائدة. إنه بارد، فأنا لست طاهية ماهرة، لأن اختصاصي هو إدارة المنزل. لن يكون لدينا طاهية قبل شهر. لذا، سيكون عليك أن تكتفي مع الأسف من (حواضر البيت).

طاهية مقيمة ومديرة منزل... كل ذلك لضمان إقامة مريحة في المنزل. لا بد أن دكستر قرر الإقامة الدائمة هنا، كما أعلنت كارولين تفكر عندما غادرت ليندا الغرفة. أتراه يريد أن يُظهر للجميع أن ذلك الفتى المفلس قادر على أن يسوس القرية بشكل أفضل من أبيها، لما يملك من أموال كثيرة ينفقها؟

ابتعدت كارولين تفرغ أمتعتها وهي تفكر في أنه لا يمكنها أن تلوم دكستر وهو الذي ترعرع مع أمه في كوخ مهجور ضمن أملاك أبيها لقاء أجر زهيد. كان معظم أهل القرية ينظرون إليهما باحتقار، لذا كان الإغراء في أن يعود ليستعرض نعمته الحديثة قوياً ولا يستطيع مقاومته سوى رجل حكيم.

طبعاً، إن دوافعه لا تهمها، وستحصر اهتمامها الوحيد في إنهاء مهمتها والعودة إلى لندن.

انتبهت إلى مرور الوقت، وكبحت رغبة صبيانية في أن ترفض العشاء معه، لأن تفادي المشاكل لم يكن من عادتها.

كان وجوده مشكلة، كما اعترفت وهي تفتح باب غرفة الطعام بعد ذلك بدقائق. كان ينتظرها عند النافذة المطلة على مرج أخضر منحدر. بدا طويلاً رائع البنية، وأكثر وسامة مما كان عليه منذ اثنتي عشرة سنة.

ولكن لم تجد فيه أثراً لحنانه ورقته الماضيين، أو لابتسامته المغرية التي أسرت قلبها، وجذبتها إليه أثناء ذلك الصيف الحافل بالحب، والضياع، والكسل.

تحول الآن إلى رجل متغطرس بابتسامته الوقحة، ولمعان عينيه السوداوين اللتين تنطقان بسخرية مغشاة بغضب لم تستطع أن تفهمه. هي من يجب أن يغضب وليس هو.

- إذن لقد قررت عدم تناول العشاء في غرفتك. أحسنت!

ازدادت ابتسامته وقاحة، وجمدت كارولين مكانها وفتحت فمها لتخبره بذلك، لكن شفتيها بقيتا منفرجتين عندما أشار بيده القوية: «هل نأكل؟».

كانت بحاجة إلى المحافظة على صفاء ذهنها وهي تتعامل مع هذا الرجل الذي تحيط به تلك الهالة الخطرة.

ارتجفت فجأة متمنية ألا يلاحظ ردة فعلها هذه، ولكن خاب أملها. فقد قال رافعاً حاجبه: «أتشعرين بالبرد؟ ظننت الجو دافئاً فنحن في منتصف نيسان».

ورفع زجاجة المرطبات لكنها أسرعت تغطي الكأس براحتها، فقال: «لا؟».

سكب لنفسه قليلاً منه وهو يتابع: «تفضلي بتناول الطعام إذن. أظن لدينا اللحم. وأنا أعتذر لأدوات المائدة الرخيصة».

وألقى نظرة تهكمية على وجهها الشاحب: «هكذا تنهار الممالك. لا بد أن أباك باع كل فضيات الأسرة مع أواني الخزف الصينية؟».

كانوا يأكلون في أطباق رائعة الجمال، وفضياتها مزخرفة بأناقة. وشعرت بلون وجهها يتغير.

- كفى!

صرت على أسنانها، وتوترت شفتاها إزاء شماتته الساخرة. لم تكن تنوي أن تثور، فقد تروت أن تتجاهل تلك السخرية الخبيثة لكنها لم تستطع أن تمنع نفسها. شبكت يديها، وأضافت بحدة بالغة: «أنا أعلم لماذا أردتني أن آتي إلى هنا، فلماذا لا ندع الأمر جانباً وبهذا يمكنني أن أنهي العمل الذي أتيت لأجله؟».

كان الحافز الذي تملكها لمغادرة الغرفة قوياً، لكنها لن تفعل لأنها عرفت أنها ستندم في ما بعد وتجعله يدرك مدى سهولة النيل منها.

جلست جامدة، راجية ألا يبدو على ملامحها سوى الضجر.

بينما استند هو إلى الخلف وقال بسخرية كسول: «أخبريني إذن، لماذا أردتك أن تأتي إلى هنا؟».

استشاطت غضباً مرة أخرى وقد استنفدت ما بقي لديها من تحكّم في أعصابها، للمرة الأولى منذ سنوات. اشتبكت عيناها الواسعتان بعينيه السوداوين: «لأن أبي كان يعتبرك من حثالة المجتمع».

استعادت هذه الكلمات كما قالها أبوها باحتقار منذ زمن طويل.

وتابعت تقول: «أنت سرقته، وكنت خطراً على ثبات القرية...».

لمَ يؤلمها الآن، بعد كل تلك السنوات! وكيف يمكن هذا؟

ـ لقد عشت في القذارة. ولهذا، عندما توفي أبي، غارقاً في الديون، وكنت قادراً على شراء أملاكه، قررت أن تحضرني إلى هنا، لتمرّغ رأسي في التراب وتتباهى بنجاحك.

استندت إلى الخلف فجأة وقد نفّست عن مشاعرها. منذ خيانته القاسية لها في حداثتها، تعلّمت ألاّ تستسلم لمشاعرها القوية، وخصوصاً للغضب الأعمى الذي يجتاحها. ومع ذلك، رأت أن الكلام أفضل من عدمه فالغضب الكامن يفسد التفكير ويخلّف جروحاً عميقة.

ردّ بحقد من دون أن تؤثر عليه اتهاماتها بشيء: «غير صحيح، ولكن ثمة دافع له. لقد عشنا أنا وأمي في كوخ مهجور لأننا، عندما جئنا إلى القرية، لم نكن نملك مالاً نستأجر به كوخاً أفضل وقد منح هذا أباك دخلاً ولو صغيراً بينما كان الكوخ على وشك الانهيار.

«أما بالنسبة إلى السرقة، فكنت في الرابعة عشرة. وعندما جئنا إلى هنا ظننت أن اصطياد السمك من الجدول خلف كوخنا هو

مجاني. ولكن أباك صحح ظني بتهديده لي بالبندقية.

كما إنني لم أحضرك إلى هنا لكي أمرّغ رأسك المترفع. لكن وجودك هنا هو ضرورة».

ثم قدم إليها طبق اللحم: «والآن، لنأكل، لتتوجهي بعدها إلى العمل».

قال لها ذات يوم إنها سبب سعادته، والآن، ما يريده منها هو خبرتها العملية. ابتلعت ريقها بصعوبة، متمنية لو أن ذهنها لم يشرد إلى الماضي، ليقارنه بالحاضر القاسي. انتابها حافز مرة أخرى بأن تهرب. لكن إدوارد لن يرضيه هذا الحل، لأن دكستر يدفع له مبلغاً جيداً لقاء حضورها إلى هنا. وإذا غادرت المنزل قبل إتمام مهمتها، سيخسر المعرض زبوناً يُرجى منه خير وفير وتحصل هي على نقطة سوداء إزاء اسمه المبجل.

تناولت قطعة من اللحم مع البندورة، متسائلة عما إذا كان بإمكانها أن ترغم نفسها على إنهاء طبقها. لم ينكر أنه كان يمثل خطراً على ثبات القرية.

هل كان يعلم أنه ترك وراءه طفلاً دون أب حين اختفى من القرية حاملاً في جيبه مالاً منحه إياه أبوها ثمن رحيله، وهو مبلغ كان يمثل له ثروة حينذاك؟ طبعاً كان يعلم. فقد أخبرته «ماقي بوب» بأن طفلتها ت ولكنه لم يشأ أن يعترف بذلك.

ـ بما أنني هنا لكي أفصل بين القطع الجيدة الباقية في المنزل، ربما عليك أن تخبرني أين تريدني أن أبدأ، أم أن يدي مطلقة؟

بذلت جهدها لتبدو عملية وموجزة في حديثها، ولتضع الأمور الشخصية المزعجة جانباً. لكن تذكر ذلك الجزء من حياتها أوهن

طاقتها واستنزف منها القوى.

لم تكن في حالة تستطيع معها أن تحتمل تأمله الطويل لسترتها الثمينة والأنيقة الطراز، قبل أن يجيب: «ابدئي من الأعلى حيث مخزن الأشياء القديمة. لقد تفحصها أحدهم منذ سنوات. وأحذرك من أنك ستجدين مخلفات البنائين من قطع أحجار وصخر سوف يعاد استعمالها في الترميد... بين الغبار والأتربة التي تراكمت على مرّ العقود. سينظف كل شيء عندما تقررين أنت ما يستحق الاحتفاظ به».

أنهى طعامه ثم قال بشيء من عدم الصبر: «إذا انتهيت من العبث بطعامك، فيمكنك أن تبدئي العمل».

* * *

أخذت كارولين تفكر وهي تقف عند عتبة باب المخزن العتيق، في أن دكستر تعمّد إرسالها إلى هنا وقد رأى أناقة ملابسها.

كان المخزن أسوأ مما تذكره. إنه مليء بقطع الجص المبعثرة هنا وهناك، أما نسيج العنكبوت فيحجب الصناديق وقطع الأثاث القديمة غير المرغوب فيها.

خلعت جوربيها، لكن حذاءها وطقمها سيتلفان. أتراه تكهن بأن ما أحضرته معها كان كله جميلاً غالي الثمن؟ لأنها مصممة على أن تبدو أمامه سيدة أعمال بالغة الأناقة مناقضة تماماً لتلك الفتاة الصغيرة المتعلقة على سجيتها التي كانتها عندما كان يأخذها بين ذراعيه، ويهمس في أذنيها كلمات الشغف.

كم تغير! ولكن ربما لم يحبها قط، فتلك النزعة إلى القسوة هي طبع موروث فيه، ولولاها لما خانها وكذب عليها أو هجر المرأة التي

أنجبت له طفلة.

دارت على عقبيها ونزلت السلم. كانت ليندا جالسة إلى مائدة المطبخ تدون بعض الحسابات.

نظرت إلى الأرض المبلّطة حديثاً بالآجر، ومجموعة المواقد الحديثة الضخمة، وغسالة الأطباق الكهربائية والثلاجة الضخمة، وتساءلت عما إذا كان بن دكستر ينوي الإقامة في هذا المنزل ليتزوج وينشىء أسرة، ثم نبذت هذه الفكرة من رأسها فالأمر ليس مهماً ثم سألت: «هل لديك مئزر للعمل يمكنني استعارته؟ طُلب مني إخلاء المخزن العتيق».

وقفت ليندا تبتسم لها بعطف: «آه، رباه... المخزن قذر للغاية، أليس كذلك؟ اقترحت أن يُحرق كل ما فيه، لكن الرئيس اعترض قائلاً إنه ربما يحتوي على أشياء ذات قيمة معنوية. يبدو أن صاحب هذا البيت كان عجوزاً متغطرساً من الطبقة الغنية، وقد مات تاركاً وراءه ابنة. طلب الرئيس أن نتركه كما هو، فقد تأتي يوماً ابنته تلك، فتحزن إذا رأت أن أشياء الأسرة قد أحرقت».

شعرت كارولين بألم يلوي قلبها. أحقاً يتمتع دكستر بمثل هذا الإحساس؟ أتراه كان يؤمن حقاً بأنها قد تعود يوماً؟ وهل تراه اغتنم الفرصة ليرغمها على العودة إلى منزل أسرتها عندما جمعتهما الصدفة مرة أخرى، لأنه كان يريدها أن تأخذ ما تراه ذا قيمة عاطفية؟

وهي التي ظنت أنه أحضرها إلى هنا لإذلالها وإظهار انتصاره عليها.

لكن ما سمعته جعلها ترتجف بحيث لم تستطع أن تحاول فهم دوافعه. فقالت: «إذن، فهو لم يرسلني إلى مخزن الأشياء القديمة لتتسخ يداي. فأنا هي ابنة ذلك الرجل العجوز المتغطرس».

ساد صمت، نظرت ليندا أثناءه إليها مجفلة: «آسفة... لم يكن لدي فكرة...!».

- لا تهتمي لذلك، فقد كان أبي حقاً بالغ الغطرسة. كان يعتقد أن مركزه يسنده، لكن المشكلة أنه لم يكن يملك المال الكافي ليسند مركزه.

كان الأمر معروفاً، ولم يكن هو يعلم أن سكان القرية يهزأون به. لم تضف إلى كلامها أنه كان إقطاعياً متعصباً بارد العواطف عديم الإحساس. تهو أبوها على كل حال، وهي مدينة لذكراه بشيء من الولاء.

وقالت ليندا وقد تملكها الارتباك لغلطتها: «أنا... حسناً... أنا لا ألبس مئزراً أثناء العمل، لكنني أظن أن مديرة المنزل السابقة تركت بعضاً منها. انتظري لحظة لأرى ما إذا كان هناك واحد في الصندوق المخصص للتبرعات».

وبعد لحظات عادت بمئزر من النيلون الشفاف المنقوش بالأزهار.

- أتعلمين أين تقيم السيدة سكيت الآن؟

دفعها الفضول مع شيء من العاطفة لتسأل عن المرأة التي اعتنت بها وربتها.

فأجابت ليندا: «استأجرت كوخاً قرب مخازن القرية. عندما ابتدأ إصلاح البيت هنا، جاءت عدة مرات لكي تأخذ ملابس أبيك. إنها امرأة طيبة، يميل طبعها إلى الحدة. وأظن أن موت أبيك قد أحزنها جداً».

كان السؤال كامناً في عيني ليندا، وهو لماذا لم تقم ابنته بنفسها

بهذه المهمة؟ لكن كارولين تجاهلته وهي تقول: «سأزورها ذات مساء أثناء وجودي هنا».

ابتسمت كارولين ثم سارت مبتعدة. كانت تعلم لما منعها أبوها من السكن في البيت، قائلاً بأنه لا يريد أن يراها قط. لكنها لن تعلم أبداً لماذا كان عاجزاً عن الشعور نحوها بأي حنان. ربما بإمكان دوروثي سكيت أن تجيب عن هذا السؤال.

* * *

علقت كارولين زيّها، ثم ارتدت المئزر الشفاف والقفازين.

لم تهتم بمنظرها المعيب إذ ما من أحد ليراها. والمهم أنها صانت ثيابها من التلف عبر غسلها.

ابتدأت تعمل بانتظام، فأخلت مساحة خصصتها للنفايات، وانكبت على صناديق الأطباق الصينية المهشمة والقدور وغير ذلك من أشياء عديمة الفائدة وهي تتساءل عما يجعل الناس يحتفظون بها، ثم تذكرت كيف كانت في طفولتها تجد في هذا المكان عزاء لها في الأيام الممطرة الموحشة.

كان هناك صندوق مليء بثياب قديمة، ربما كان ملكاً لجدتها أو أمها. بإمكان الملابس القديمة أن تدرّ مالاً كثيراً، خصوصاً عندما تكون في حالة جيدة. وتذكرت أن معظمها كان بحالة جيدة.

أخذت تبحث عن ذلك الصندوق حتى وجدته. وعندما فتحته وجدته خالياً لا يحتوي إلا على رزمة رسائل مربوطة بشريطة باهتة.

لا بد أن أباها باع هذه الأشياء عندما شحّ ماله. ربما بإلحاح من دوروثي سكيت؟ بمكنتها أن تتذكر صوت مديرة المنزل وكأنه

بالأسى: «عرفت أنني سأجدك هنا. حان وقت النوم والتنبهي إلى ما تفعلينه بهذه الأشياء... فقد تكون ثمينة حقاً. ومع ذلك، إذا كان التفرج على هذه الملابس يهدئك ويشغلك عنا...».

جلست كارولين القرفصاء ودفعت شعرها الأسود اللامع عن وجهها بيدها الملوثة بالغبار، تاركة بقعة قاتمة على خدها الأبيض.

لو أن أباها داس قليلاً على كبريائه وباع الأملاك بدلاً من أن يرهنها، ثم انتقل للسكن في بيت صغير، لعاش سنواته الأخيرة مرتاح البال. ولكن شعوره بالعظمة ما كان ليدعه يفعل ذلك.

تنهدت ومدت يدها إلى الرسائل، كان والدها قد كتبها إلى أمها قبل زواجهما. سطور قليلة كانت كافية لأن تخبرها بأنهما كانا غارقين في حب عميق، وأن «ريجينالد الشاب» كان يعشق خطيبته الجميلة.

أعادت الرسالة إلى غلافها لتربطها مع مثيلاتها، وأصابعها ترتجف. كانت الرسالة حميمة وأرتها جانباً من شخصية أبيها لم تعرفه من قبل. كان الحب ينضح من هذه الصفحات الباهتة.

أمسكت بالرسائل ونهضت واقفة وعيناها مغرورقتان بالدموع، وإذا بها تراه... لم تستطع أن تتنفس.

لم تكن تفكر في «بن دكستر» أثناء الساعتين الماضيتين، لكنه يقف الآن عند عتبة العلية يراقبها. كان الجو عابقاً بشخصيته... وجاءتها الفكرة...

لو أنها أوضحت لأبيها مدى حبها لدكستر بدلاً من اللجوء الى الصمت، والنظرات المتمردة، لربما تفهم الأمر. فقد عرف الحب الحقيقي.

ولكنها ما لبثت أن طردت هذه الفكرة التي ما كانت لتحدث أي فرق. حتى لو تمكنت من إقناع أبيها بأن يرضى بعلاقتها بفتى القرية بدلاً من تهديدها بالقتل، لما كانت نهايتها سعيدة معه. فالفتى دكستر لم يكن أصلاً يحبها. لقد كذب عليها، وعندما دفع له أبوها بعض المال، ذهب يفتش عن أخرى. والآن أنبأتها نظرته والتواء فمه الصلب، بأنه لاحظ مظهرها الغريب. واستقرت عيناه على ما كان واضحاً... خطوط جسدها الرشيق البادية من خلال المئزر.

في محاولة لتهدئة مشاعرها، رفعت رأسها قليلاً وسألته ببرودة: «أتريد شيئاً؟».

- أريدك.

واشتبكت عيناه السوداوان بعينيها. وظنت، للحظة، أنه كان يعني ذلك حقاً. فأخذ جسدها يرتجف والحرارة تسري في عروقها، كما احتبست أنفاسها، إلى أن قطب حاجبيه الأسودين، واقترب منها وقد تلاشت ابتسامته الساخرة الكسلى.

لم يكن يعني طبعاً، أنه يريدها. كل ما كان يريده هو أن يتفحص عملها ليطمئن إلى أنها ليست جالسة في مكان ما، مكتوفة اليدين.

كما أنها لم تكن تريده... حتماً، لا تريده، إلى أن لمسها...

جاءت لمسته عفيفة وهو يزيح شعرها القاتم عن جبينها فذاب كل ما في داخلها ليتفجر أشواقها وذكريات السعادة التي عرفتها يوماً قربه.

جف حلقها وعجزت عن التنفس فمد إصبعه إلى أهدابها المبتلة ثم قال ببطء: «أنت متكدرة، يا كيرو. لم أشأ أن يحدث لك هذا، صدقيني».

أذاب الاهتمام البادي في تلك العينين السوداوين عظامها.

تذكرت كيف كان كلامه يصلّ إلى قلبها مباشرة.

تذكرت تلك الليلة الصيفية المقمرة عندما اصطدمت بشجيرة سنديان، لأنها، عندما تكون معه، لا ترى سواه. إنها نظرته التي رمقها بها وهو يمسّد بشرة كتفها العاجية الناعمة، وكأن لمسته وحبه، يمكن أن يمنعا أي خدش عنها. ولم تكن، حينذاك، تشك في إخلاصه وصدق اهتمامه.

ولكن كان عليها أن تشك فيه.

وقال برنة: «فكرت في أن المكان قد يحوي أموراً تهمك. تذكارات من طفولتك، صور أو أي شيء قد ترغبين في الاحتفاظ به. لقد أخلت السيدة سكيت أغراض أبيك الخاصة، وأنا أعلم أنها كانت تنوي الاتصال بك. سأرتب أمر اجتماعكما معاً أثناء وجودك هنا».

وضع يده بخفة على كتفها فانكمش جسدها متوتراً. ودون وعي منها، ارتفعت عيناها واستقرتا على وجهه.

فقالت بصوت ثابت خشن: «لا حاجة لذلك، لقد سبق وقررت الاتصال بدورولي، وحتى الآن...».

ونفضت يده عنها: «لم أجد شيئاً ذا قيمة أو أهمية باستثناء هذه الرسائل التي أنوي الاحتفاظ بها. لكنني سأتابع البحث».

آه، كم تتمنى لو أنها لا تبدو بهذا المظهر المخجل! ولو أنّ مئزر دورولي مصنوع من قطن سميك لا يكشف جسدها لهاتين العينين اللتين أصبحتا الآن غامضتين تماماً. هل لأنها رفضت اهتمامه بها وردّت كلماته من حيث أتت؟

قال وهو يشيح عنها متعمداً: «ليس الآن. تابعي عملك في

الصباح، لقد أخبرت ليندا بأننا سنتعشى خارجاً هذا المساء، يكفيها ما لديها من عمل».

وقف عند العتبة والتفت ينظر إليها قائلاً بصوت يتراوح بين الإحباط والتسلية: «غيّري ما تلبسينه... هل هو قميص نوم؟؟ وكوني مستعدة للخروج بعد نصف ساعة».

* * *

٤ ـ ظلّ الخيانة

ـ أنا واثق من أنك جائعة الآن، فأنت بالكاد لمستِ غداءك.

كان ذلك الاهتمام الذي أثار اضطرابها، قد اختفى من عينيه لتحل مكانه لمحة هزل وتسلية..

كانت الساعة الثامنة وضوء النهار يتلاشى مظهراً تألق أسنانه مقارنة بوجهه الأسمر، وقد أطفأ محرك السيارة ومنحها ابتسامة باردة اقشعر لها بدنها.

كادت تقول بصدق إنها جائعة تماماً، وإن الذنب ذنبه لعدم تمكنها من ابتلاع أكثر من لقمة واحدة من غدائها. لكنها قالت له عوضاً عن ذلك: «نوعاً ما».

كانت تتوقع أن يكون العشاء في مقهى في القرية، لذا لم تهتم بملابسها. وإذا بها في أفخم مطعم في الأرياف، ما يدل على أنها ستكون نافرة بين زبائن المطعم في ملابسها هذه. عندما تحقق ظنها، قررت ألا تدع الأمر يزعجها. أما ملابس بن دكستر فكانت خالية من أي عيب، وسرق بمظهره الحيوي وأناقته الرائعة انتباه الموجودين. عندما جلست أمامه وناولها قائمة الطعام الكبيرة وجدت صعوبة في الإمساك بها وأخذت تتساءل عما يجعله يزعج نفسه في التأثير عليها.

أترى للسبب نفسه الذي جعله يؤثر على سكان القرية عبر شرائه أملاك «لانغلي هايز»... ليقال إن ذلك الصبي المنبوذ قد حقق نجاحاً باهراً؟.

لقد أثر عليها أكثر بكثير منذ اثنتي عشرة سنة عندما كان لديه هدفان: أن يتزوجها، وأن يكسب المال لكي لا ينقصها شيء وتعيش في أبهة. هذا على الأقل ما كان يقوله وصدقته. كم كانت ساذجة حمقاء!.

آه، لقد كسب المال من دون شك، بينما هي لا تهتم بالعيش في أبهة، أما بالنسبة إلى زواجه منها، فكان الأمر بعيداً عن تفكيره الكاذب المخادع.

سلّمت قائمة الطعام للنادل، مسرورة للتخلص منها. ثم قالت برقة وهدوء: «سأبدأ العمل في الصباح متأخرة قليلاً. أريد أن أذهب إلى القرية لأرى إذ كانت «أنجي براون» ما زالت تبيع قمصاناً وبنطلونات جينز. أريد بعض الملابس العملية ما دام عليّ أن أمضي نصف وقتي في العلّية. كنت ألبس أحد مآزر «دوروثي سكيت»، فأنا لا أنام مرتدية أثواباً من الحرير منقوشة بالأزهار».

ضحكت عيناه السوداوان فجأة، والتوت شفتاه بمكر وأدركت أنها اقترفت غلطة فادحة عندما ذكرته بأنه ظنها ترتدي قميص نومها، وسألها: «ماذا ترتدين خلال النوم هذه الأيام؟ بيجامات حريرية مطرزة باليد؟».

وعندما توهج وجهها، قال مغيراً الحديث: «تغيّر مخزن القرية منذ خمس سنوات عندما تقاعدت «أنجي». والمالك الجديد لا يبيع الملابس. لكنني ذاهب إلى «شروزبري» غداً، ويمكنك أن تأتي معي.

يمكنك أن تسوّي أثناء اجتماعي بالمحامي. هناك مطعم في «بانشر» يمكننا أن نتقابل فيه لتناول الغداء».

يهذه البساطة. رباه، ساعدني على تمالك نفسي! دعت الله أن يعود نبضها إلى وضعه الطبيعي. ستقودها تعليقات الماضي أثناء الأحاديث اليومية، إلى الجنون. من الأفضل أن تتجاهل ذلك.

ـ لو كنت مكانك لفكرت في شركة من المحامين البارعين في لندن.

تناولت إدارة دفة الحديث، متجاهلة إشارته إلى الماضي، راجية أن يفعل الشيء نفسه مستقبلاً. وإلا، فستكون مرغمة على أن تقول رأيها في الموضوع، وهي لا تريد أن تتشاجر معه، مخاطرة بأن يشكوها إلى إدوارد، فتعرّض وظيفتها إلى الخطر. من الأفضل أن تحاول إمساك لسانها عن التداول بماضيهما وتبقي علاقتهما الحاضرة عملية قدر المستطاع.

ـ لا. فأنا أؤمن بمساندة الشركات المحلية الريفية.. والآن، ماذا تطلبين؟

أعلن الجملة الأخيرة وهو يرى النادل يتقدم، تطلبت السمك مع الفطر وحلوى دانمركية، بينما شرد ذهنها... كونه مواطناً محلياً، سيستقر في «لانغلي هايز». وما ملعب الغولف ومركز العطلات إلاّ ثمن صغير لإرضاء شعوره بالعظمة وذلك بالسكن في منزل عدوه السابق.

إنه منزل يتسع لزوجة وأولاد وجيش من الخدم. وجعلها التفكير في الزواج تشعر بالمرض تقريباً، وما كان لها أن تشعر بذلك. لأنه أقل من لا شيء بالنسبة إليها، كما أنها تشفق على زوجته العتيدة.

فالكاذب المخادع يبقى دوماً على هذا النحو مع النساء. رفضت ما عرضه عليها من شراب، وأكلت جيداً، وتبادلت معه أحاديث عادية، وكانت شاكرة لمغادرتهما المطعم أخيراً.

* * *

بدت أنوار السيارات الأمامية أشبه بنفق ذهبي كاسح تحت الأشجار الكثيفة التي كانت أغصانها تتدلى فوق الطريق الضيق. قريباً ستتفتح أزهار الربيع على جانبي الطرق، عابقة الجو بعبيرها.

كانت طفولتها موحشة غالباً، مع ذلك، كانت شغوفاً بهذا الجزء من الريف. لكن حياتها هي الآن في لندن حيث بيتها، وعملها وأصدقاؤها. فهي لا تريد ولا تحتاج إلى الشعور بكل هذا الحنين.

دون تفكير منها، قالت بحدة وهما يدخلان المنزل: «أنا واثقة من أن المنطقة بحاجة إلى ملعب للغولف وأماكن لقضاء الإجازات، ولكن هل تريد أن تكون محاطاً بالناس؟ كان أبي ليصاب بنوبة لو رأى أناساً يتسكعون في أملاكه».

ـ أنا لست أباك.

أجابها ببرودة، فزمّت فمها صامتة. لقد كان أكثر وسامة بكثير وأكثر قدرة على تفهم الآخرين من أبيها. لقد تعذب ليكسب ثروته الضخمة، بينما كانت أملاك أبيها تتضاءل شيئاً فشيئاً نظراً لسوء إدارته. لكن لدى كليهما نزعة إلى القسوة، وعدم مراعاة تامة لأحاسيس الآخرين.

وأضاف ساخراً: «ولن أكون هنا أغلب الأوقات لأهتم بالجماهير. وعلى كل حال، سأبقي عدداً من الغرف للضيوف».

أوقف سيارته الجاكوار اللامعة قريباً من موضع البناء، ساحقاً

بمجلاتها شظايا الجص والآجر الحادة الأطراف. وتربكت منها كارولين، وهي تتساءل عما إذا كان دوماً عديم الاهتمام بما يملكه كما هو مع الآخرين.

دخلت المنزل قبله، لكنه أدركها وسألها: «أتشاركينني في القهوة؟».

فقد صوته حدته، وفي هذا السكون الذي يلف المنزل، شعرت برجولته المثيرة... والخطرة، فارتجفت في داخلها. ما أسهل أن تستسلم للإغراء... هل ما زال محباً كما كان منذ سنوات طويلة؟

طردت من ذهنها تلك الفكرة، ثم هزت رأسها: «لا، شكراً. متى سننطلق غداً إلى «شروزبري»؟».

- في العاشرة. وعلينا أن نكون هنا في الثالثة. هل أنت واثقة من أنك لا تشعرين بالحاجة الى القهوة؟

- واثقة تماماً.

ستضيع وقتها سدى في الغد لو ذهبت معه. لم تضع في حسابها أن تمضي معه وقتاً أكثر من الحاجة. لماذا لم تنتبه إلى إحضار ثياب للعمل؟ فثيابها هذه غير ملائمة.

وكتمت آهة، ثم قالت: «سأستغني عن رحلة التسوق تلك. وسأتدبر أمري بثيابي».

من الأفضل أن تتلف ملابسها على أن تبدو بتلك الصورة الباردة لعاملة محترفة.

هناك حد للوقت الذي تمضيه معه دون أن تستسلم للإغراء الذي يدفعها إلى أن تقول له كم تشعر... بالاشمئزاز منه.

أدارت له ظهرها واتجهت إلى السلم، فسمعته يقول بنعومة:

«هل تخافين، يا كيرو؟ لماذا يا ترى؟».

أغلقت باب غرفتها ثم استندت إليه وهي تتنفس بصعوبة بينما راح قلبها يخفق بعنف وكأنها ركضت في ميدان سباق لمسافة طويلة هاربة من الشيطان أي ابن دكستر.

لقد شغفت به ذات يوم. وأصبح علة وجودها، وعندما خانها تحطمت حياتها. لكن تلك الخيانة لم تغير من جاذبيته المدمرة.

جرّت نفسها مبتعدة عن الباب، شاعرة بانزعاج وغضب لاتجاه مسار أفكارها.

اختارت قميص نوم حريرياً، ثم ذهبت إلى الحمام بعد عشر دقائق، وعادت وهي تربط الروب حول خصرها فوجدت ليندا عند باب غرفتها.

- تذكرت في أنك قد تودين أن تستعيري هذه. أظنها ستكون أوسع وأقصر من قياسك، لكنها أكثر عملية من تلك المآزر الشفافة.

ابتسمت لها كارولين بحرارة حتى كادت تعانقها. لم يعد عليها الآن أن تتلف ملابسها، بل الأكثر من ذلك لن يكون عليها أن تتساءل متى يدخل دكستر المخزن لكي يتفرج على ملابسها.

- شكراً يا ليندا!

وتناولت منها بنطلون الجينز المطوي بعناية والقميص الأخضر الباهت، وهي تفكر. بما يجعل دكستر يحتفظ بجناح واحد من الغرف يستعمله من وقت لآخر، بينما المنزل كله تحت تصرفه، لكنها عادت تسكت أسئلتها قد تكشف عن اهتمام تريد هي أن تنكره، خصوصاً لنفسها. وبدلاً من ذلك قالت: «إنه لطف بالغ

منك، في الحقيقة».

نهزت ليندا كتفيها: «لم أفعل شيئاً، هل استمتعت بالسهرة؟».

ـ كان الطعام ممتازاً.

قالت ذلك متجنبة السؤال. وفتحت بابها ودخلت فهي لا تريد أن تتحدث عن ذلك.

تلقت ليندا ود كارولين بابتسامة بسيطة: «حسناً. سأودعك فقد لا أراك مرة أخرى. أخذت بقية الأسبوع إجازة، فلدينا تحضير ابن أختي وأنا العرّابة... قد تنهين عملك هنا عندما أعود».

ستكون وحدها مع دكستر إذن. فكرت في ذلك وقد هوى قلبها جزعاً وهي تبتسم لليندا ملقية الكلمات المناسبة. أغلقت الباب خلفها وهي تحدث نفسها محاولة أن تخفف من خوفها فغياب المرأة غير مهم في الحقيقة. وبإمكانها التعامل مع دكستر وحدها. فهي ليست بحاجة إلى سند.

لم يعد يهتم بها ولو مقدار ذرة، وماضيه يشهد على أنه من ذلك النوع من الرجال، كما أنّ إصراره على تدومها هو فقط للتباهي بإنجازاته، ولكي يريها فقط أنه أصبح ذا شأن.

حسناً، يمكنها أن تتعامل معه، ولا مشكلة في ذلك. وفي الواقع، كانت معجبة بذكائه في كسب المال. أما بالنسبة إلى انجذابها إليه والذي لا تستطيع إخفاءه عن نفسها... حسناً، إنها تكره الاعتراف بذلك، لكنها تجد صعوبة في التعامل معه...

وبدلاً من أن تكون قادرة على نبذ الأمر من عقلها الواعي، وجدت نفسها مستلقية في الظلام، تنتظر إشارة منه كأن يقذف الحصى على زجاج نافذتها بخفة... كم كانت مطيعة له حينذاك.

جلست على حافة السرير، ثم أضاءت المصباح بقربها وضغطت على صدغيها محاولة التخفيف من ألمهما.

يجب أن تتمالك نفسها، وتكف عن التذكر. باتا شخصين مختلفين الآن وقد عرفت أنه عديم القلب. أما الرجل الذي أحبته منذ وقت بعيد فلم يكن سوى جزء من مخيلتها، وحلم شاعري أحمق.

أنبأتها ساعتها بأنها الثانية، فأدركت أنها لن تنام. لماذا تستلقي مع ذكريات الماضي، بينما تستطيع العمل، مقرّبة ساعة رحيلها بعض الشيء؟

اتخذت قرارها، فارتدت الروب وشدت حزامه حولها ثم تناولت دفتر الملاحظات.

ستزور أولاً غرفة الطعام، كما فكرت وهي تتسلل بصمت على السلم الفسيح. لقد بيعت المائدة الرسمية بكراسيها الاثني عشرة منذ وقت طويل عندما كانت في الرابعة عشرة تقريباً. عندما عادت إلى البيت في عطلة الميلاد وسألت أباها عنها، قال ساخراً: «وبماذا أدفع لك أقساط المدرسة الداخلية؟ هل أنهب المصارف؟».

وعبثاً كانت تقول له، بأنها ستكون أسعد لو أخبرها بكل شيء. فهو كان يرمقها بنظرة ازدراء يبدو أنه يخصها بها وحدها: «تذكري من أنت!».

من هي.. وتملكها فجأة شعور أثار أعصابها بأنها لا تعلم من هي. هل هي ناجحة بمجهودها الخاص، أم أنها ظل من دون جذور، ما زالت مرتبطة بحب مفقود؟ وأربكها وجودها مرة أخرى هنا مع التي التي كان ممنوعاً عليه التواجد في هذا المكان. لقد تحول الآن إلى رجل صارم يملك كل ما حولها، ما جعلها تشعر بأنها تعيش وهماً.

نفضت عنها هذا الشعور المربك، وعادت بأفكارها إلى العمل. لقد ذهبت المائدة ولم يؤت ببديل عنها لأن أبيها لم يكن يستضيف أحداً. ولكن، كان هناك مائدة من الخشب... ربما من طراز جورج الثالث. كذلك كان هناك واجهة من الطراز نفسه. كان الاثنان قيّمين ويصلحان للاستثمار.

فتحت الباب بهدوء ثم أغلقته خلفها، وأضاءت النور، ثم وقفت مذهولة لما رأت، متمنية لو أنها سألت ليندا عما يخططه دكستر بالنسبة إلى المنزل.

أزيل ورق الجدران البشع الداكن، واستبدل باللون الأصفر الفاتح. واحتلت مائدتان مع الكراسي الخشبية المستطيلة وسط الغرفة بينما أحاطت بالمدفأة الضخمة كراسي مريحة للغاية، كما أن الخشب تحت قدميها كان يلمع.

تذكرت تجهيزات المطبخ، والحمام الإضافي الذي أنشىء بجانب غرفتها، ثم ابتدأت تفكر، مستبعدة فكرة تحويله المنزل إلى فندق ريفي.

سمعت صرير الباب خلفها فتصلب جسمها، وحبست أنفاسها راجية أن يكون القادم ليندا وليس دكستر.

لكن حظها كان سيئاً كالعادة معه دوماً. سار نحوها ملتحفاً بالسواد، كنزته مفتوحة العنق وبنطلونه الجينز مهترىء، بينما كانت قدماه حافيتين كقدميها.

أخذ قلبها يخفق، وسرت الحرارة في عروقها. بدا غاية في الجاذبية بشعره الأسود المشعث، وفكه المظلل بالسواد، وعينيه السوداوين اللتين تلمعان تحت جفنيه الثقيلين. إنها تتذكر هذه النظرة

جيداً.

ـ ألم تستطيعي النوم؟ لمَ يا ترى؟

قال ذلك بنعومة وعيناه تكتسحان قوامها، لدرجة أنه جعلها تشعر بالحياء.

ـ أكلت طعاماً عسير الهضم على العشاء.

كذبت وهي تحاول بلهفة أن تتجاهل ارتجاقات الاستجابة التي كانت تتدفق بعنف في كيانها. لم تشأ أن يكتشف ما تشعر به نحوه اللّهم إلا الاحتقار.

والمؤسف في الأمر هو أنه لم يكن لأي رجل مثل هذا التأثير عليها. لقد خرجت طبعاً مع آخرين، ولكن لم يستطع أحد أن يثير فيها هذه المشاعر المتقدة، المدمرة التي أيقظها دكستر في كيانها.

اهتز دفتر الملاحظات في يدها. فشغلت نفسها بفتحه وإزاحة القلم الذي كان مشتبكاً في حلقاته المعدنية، وقالت: «ربما إنني لم أستطع النوم، ففكرت في إنجاز بعض العمل. لم أقصد إزعاجك».

ـ سواء قصدت أم لا، لقد فعلت وانتهى الأمر. ثم هل أنجزت عملاً؟

كانت لهجته جافة، فجالت بعينيها في أرجاء الغرفة. لقد أصبحت مختلفة عما تتذكرها، فاستجمعت معلوماتها المشتتة، وقالت: «كان هناك منضدة، ربما باعها أبي، إلا إذا نقلتها أنت إلى مكان آخر».

ـ لا.

لم تكن تنظر إليه، لكنها أحست به يقترب منها ويزداد اقتراباً.

أخذ قلبها يخزها شوقاً إليه.

فقالت بصوت أجش: «الواجهات ما زالت هنا وهي قيمة. احتفظ بها إذا كنت تتطلع إلى الاستثمار».

- كل ما أتطلّع إليه في هذه اللحظة هو أنت.

ابتلعت كارولين ريقها وتسارعت أنفاسها. ما قاله كان صحيحاً، فهي تشعر بعبثيه تلهياتها. أرادت أن تخرج من هنا، الآن. لكن ساقيها لم تتحركا. ثم شعرت بيده على خصرها، تلمسها، مرسلة ومضات من نار في نبضها. أرادت أن تنهره، لكن لسانها التصق بحلقها.

- أنت تشعرين بالبرد. خفضت التدفئة المركزية إلى أدنى درجة. فلنذهب. سيشفي الحليب الدافيء... سوء الهضم الذي تعانين منه.

ازداد ضغط يده، حتى شعرت بموضع أصابعه. لقد حان الوقت لتخبره بأنها لا تريد الحليب الدافىء، ولا اهتمامه المصطنع بها، ثم تعود إلى غرفتها. لكنها لم تفعل بل ذهبت معه بكل بساطة، شاعرة بالخواء لارتدادها الجنوني إلى ذلك الصيف منذ سنوات طويلة عندما كانت تتبعه حيث يشاء.

وعندما دخلا المطبخ الدافيء، قال: «لم تسألي لماذا جافاني النوم. ألا تظنين أن هذا هو السؤال المناسب لدى إجراء أي حديث مهذب؟».

بست السخرية في صوته فيها وتراً. ما بينهما كان يحول دون أي حديث عادي مهذب، لكنها عادت فتذكرت أنه كان دوماً رائعاً، بالرغم من عنف أساليبه، وهو دوماً منسجم ظاهرياً مع مشاعر

الآخرين.

لم تقل شيئاً، بل ترنحت فقط، وقد توتر جسدها الرشيق، وهي تنظر إليه يسكب الحليب. كانت تعلم أن عليها الخروج من المطبخ، وإنهاء هذا التقارب الحميم، ولكن قوة غامضة أبقتها حيث هي، بشكل لم تعهده من قبل.

- سأخبرك إذن ما دمت لا ترغبين في السؤال.

مجرد سماعها صوته جعلها تحبس أنفاسها وتعض على شفتها السفلى. لو كانت سريعة البديهة لقالت له: لا تزعج نفسك، لا يهمني الموضوع... لكنها كانت ضائعة متوترة.

وقال لها: «مجرد التفكير في أنك تحت سقف واحد معي، لا يساعدني على النوم. إنني بحاجة إلى شيء أقرأه، شيء يصرف ذهني عن ذلك. عندما رأيت النور في غرفة الطعام، ظننت الأمر سهلاً، لكن هذا لم يحدث».

ورمقها بنظرة عابسة.

سكب الحليب في الفنجانين، فعقدت حاجبيها الدقيقين. ما الذي لم يكن سهلاً؟ وجودها قربه؟ هل يخزه ضميره؟ لماذا لم يقل ما يعنيه؟ لطالما كان يتصرف هكذا من قبل، كان يعبّر عن مشاعره العميقة بحرية وكان واضحاً تماماً أنه يريدها.

ذكرت نفسها وهي متعبة بأن الأمر كان مؤقتاً، فهي رقم آخر يزيده إلى رصيده. ابنة سيد الأراضي الذي عامله وكأنه حثالة المجتمع. كم كان يضحك على أبيها!

لم تتميز، لم يعد يبدو عليه أي شعور بل يبدو عليه غضب غريب أحياناً ولا شيء أكثر. نظرت إليه وهو يغسل إناء الحليب ليضعه في

ضالة الأطباق، فقررت أن تحصل منه على جواب واحد مباشر على الأقل... جواب على السؤال الذي يراود ذهنها.

- ما هي خطتك بالنسبة لهذا البيت؟

بدت عليه ابتسامة شبه ساخرة: «آه، كنت أتساءل متى يهزم فضولك ذلك الحاجز الذي وضعته بيننا. أقترح أن نشرب هذين الفنجانين في المكتبة. وسأخبرك بما يجول في ذهني حول «لانغلي هايز»، وفي مقابل ذلك، قد تخبريني بما أفسد علاقتك مع... ما اسمه؟... جيريمي كيرتس، أليس كذلك؟ كنت ستحتفلين بخطبتك في عيد ميلادك الثامن عشر. إنه يمثل صفقة جيدة لابنة ملاّك فقير. ما الذي حدث إذن؟ هل علم بأنك كنت تخرجين معي، فأنهى كل شيء؟ لا بد أن الأمر حطمك، خصوصاً أنك كنت تلحين عليّ لإبقاء علاقتنا سراً».

* * *

٥ - دقت ساعة الحقيقة

لم تستطع كارولين أن تصدّق كلامه. وكادت تتعثر وهي تتبعه إلى المكتبة، وهي غرفة صغيرة جدرانها مغطاة برفوف الكتب قد أثثت بأرائك جلدية.

تباً له! إنه يعلم لماذا جعلا علاقتهما سراً. فهو يعرف طبع أبيها!

وضع الفنجانين على منضدة، ثم انحنى يشعل المدفأة الكهربائية. نظرت إليه بعينين ضيقتين، وهي تكبح سيلاً حارقاً من الردود على اتهاماته. لو أنه وجه إليها هذه الإهانة منذ اثنتي عشرة سنة لكانت إجابتها عنيفة، ربما بالضرب والعض والخدش أيضاً! لكنها أكبر سناً الآن... وأكثر تمالكاً لنفسها.

أوشك خفقان قلبها أن يحدث ثقباً في صدرها، لكنها حملت أحد الفنجانين بيدين مرتجفتين وغاصت في الأريكة.

لن تدعه يغضبها أو يفقدها أعصابها لأنها خلافاً لما كانت عليه وهي أصغر سناً، تسيطر على ردة فعلها إزاء ما قد يقوله أو يفعله.

واجهت كلماته المهينة بالاحتقار، وتجاهلت مزاعمه وقالت بصوت متوتر محاولة تغطية مشاعرها الغاضبة: «كانت الخطبة في ذهن أبي وجيريمي وليس في ذهني».

- أحقاً؟ هل كان ترتيب أمر الخطبة دون علم الخطيبين

السعيدين؟

كان واضحاً أنه لم يصدقها. وقف على بعد خطوات منها، يواجهها، واضعاً يديه على حزامه فلفتت قوة عضلاته انتباهها.

سلخت عينيها عنه، وسمّرتهما على الفنجان الذي بين يديها ثم رفعته إلى شفتيها. رشفت رشفة خفيفة منه وابتدأ غضبها يتلاشى.

تنفست بعمق، كانت تريده أن يصدقها. لم يكن يهمها رأيه، ولكنه مهم في أعماقها.

أخذت رشفة أخرى من الحليب، ثم شرحت له الأمر بتوتر: «كان أبي ووالد جيريمي زميليّ دراسة في اكسفورد، وبقيا على اتصال. خصوصاً أن سكنيهما يبعدان عن بعضهما عشرين ميلاً. كان أبي عرّاب جيريمي، وعندما كنت أنا صغيرة اعتدت إمضاء إجازاتي المدرسية عندهم. وأظن أن اللايدي كيرتس والدة جيريمي، رأتني بحاجة إلى حنان الأمومة، وبدا أبي مسروراً للتخلص مني.

وعندما بلغت الثالثة عشرة، توفيت اللايدي كيرتس جراء سقوطها عن ظهر الحصان، فتوقفت زياراتي لهم. ولكننا بقينا نرى جيريمي. فقد كان، هو وأبوه، الوحيدين اللذين نراهما بصورة دائمة. وأرادني أبي أن أتزوجه».

وهزت كتفيها بخفة وقد غامت عيناها بالذكريات. فالزواج من جيريمي، وثروة كيرتس كانا الشيئين الوحيدين اللذين يرضيان والدها في الواقع.

- وهل كان ذلك المسكين يحبك؟

سألها بصوت خشن يتخلله الازدراء والمرارة.

لا يحق له أن يطرح هذا السؤال فهي نفسها لم تكن تعرف جوابه. آه، كانت تنتبه أحياناً إلى جيريمي وهو ينظر إليها بطريقة تشعرها بعدم الارتياح، أما الحب، فلا. لم تكن تظن، أنه يكنّ لها أي شعور.

اكتفت بهز كتفيها وهي تأخذ جرعة أخرى من الحليب، ثم حملقت فيه مصعوقة وهو يقول لها فجأة معنفاً: «ما زلت حقيرة دون قلب!».

ثم هدأ صوته وقال: «الرسالة التي أخبرتني فيها أنك ستتخلين عن خدماتي، هل كتبتها بعد فوات الأوان أم لأنه اكتشف أنك كنت تخرجين معي خفية ففشلت الخطة؟ لا بد أن هذا دمّر الرجل».

وتقدم منها يقرّب وجهه من وجهها وعيناه تفضحان احتقاراً: «وكل ما تفعلينه أنت هو هزّ كتفيك!».

كان غضبها يوازي غضبه حدة وحرارة. كيف يجرؤ على التصرّف بهذا الشكل؟ وضعت فنجانها على السجادة العجمية الباهتة، ونهضت واقفة، ثم واجهته شامخة الرأس بتمرد لاذع: «تحاول أن تضع اللوم عليّ لما حدث لكي تخفي ذنبك... هكذا يفعل الناس، أليس كذلك؟ ولماذا قد تختلف عنهم على كل حال؟».

التهبت عيناه وهو يتقدم نحوها، لكنها ثبتت في مكانها. كان الوضع متأزماً لكنها لن تهرب. هو المذنب وليس هي!

كانت راحتاها تنضحان عرقاً. بدا وكأن نيران غضبهما تجذبهما إلى بعضهما بدلاً من أن تفرق بينهما.

لوى شفتيه بشبه ابتسامة: «هل تنكرين أنك كتبت بأنك لا تريدين أن تريني مرة أخرى؟ حتى أنك لم تتصرفي معي بشكل مهذب

تخبريني بذلك شخصياً».

لا يمكنها طبعاً إنكار ذلك. تمنت لو تضربه لمحاولته جعلها المخطئة. وقالت باحتقار: «لأنك لم تكن موجوداً. بعد أن ذهب أبي ليراك، رحلت أنت، هل نسيت؟».

حتى الآن، بإمكانها سماع أبيها يقول متهكماً: «يمكنك أن تنسي حبيبك الجشع. عرضت عليه مالاً ليرحل، فأخذه بلهفة. إنه لن يعود، وإن لم يكفِ هذا لتهدئة حماستك فاسألي «ماغي بوب» عن والد طفلتها».

أطلقت كارولين نفساً وهي ترتجف. لم تكن تريد هذه المواجهة المرّة، ولا هذا التأثير المخيف الذي أحدثه فيها، جاعلاً نبضها يخفق وجسدها يحترق، فأحال غضبها العنيف شعوراً غامضاً بالسرور!

قالت بصوت خافت معذب:

- كتبت لك رسالة وتركتها مع أمك. ما الذي كنت تتوقعه غير ذلك؟

عليها أن تخرج من هنا، قبل أن تقول شيئاً يجردها من كرامتها، شيئاً ينبئه بمدى تأثرها بغدره وخيانته. تكهّن بما تنويه، فأمسك بعنقها وعيناه تتقدان لهباً في عينيها: «ماذا كنت أتوقع؟ أخبريني! لقد مرّ وقت... كنتِ فيه تحققين كل توقعاتي، بل وأكثر، هل نسيت؟».

أرخى قبضته فكان لحركة أصابعه على بشرتها تأثير كبير فيها، وانبعثت فيها أحاسيس رقصتها زمناً طويلاً وأصابتها بالدوار عندما أخذ يكرر بصوت أجش:

- هل نسيت يا كيرو؟ هل نسيت حين كنا ننظر إلى بعضنا من

دون أن نشبع أبداً؟ وكيف كنت تتوقين إليّ؟».

- كفى!

صدرت آهة احتجاج من شفتيها المرتجفتين. كان جسدها بأكمله يرتجف لذكرى ذلك السحر القديم، والضيق يمتزج بحس مؤلم من الخسارة والخيانة تردد صداه في نفسها على مرّ السنين. قالت له والفزع يتملكها: «دعني أذهب».

فقال بنعومة: «سأدعك تذهبين إذا أردت ذلك. لكنك لا تريدين. أنت الآن لي كما كنت في الماضي. أنكري ذلك إذا شئت...».

وأخذ يمرّر بإصبعه على شفتيها برقة.

وتسللت أصابعه إلى عنقها حيث كان النبض يخفق بعنف.

لم تستطع كارولين أن تتنفس. أرسلت ملامسة أصابعه بهجة في كيانها، كالعادة. انحنى في هذه اللحظة ما فعله في الماضي بعد أن أصبح رباط المشاعر هو الذكرى الوحيدة لهما.

رفعت جفنيها الثقيلين فجأة، وواجهت لمعان العاطفة في عينيه السوداوين. وصار تنفسها همساً، وشُحن الجو بالمشاعر المثيرة.

وأطلق زفرة طويلة، وهو ينظر إلى المشاعر على وجهها: «... لا رفض، يا كيرو؟».

وانحنى يعانقها: «هذا حسن... حسن جداً».

استسلمت لعناقه عاجزة... متلهفة إلى المشاعر العنيفة التي لم يتمكن أي رجل من أن يجعلها تشعر بمثلها.

ثم رفع رأسه، وهو يحيط خصرها بيديه، متحكماً في نفسه بينما فقدت هي السيطرة على نفسها كلياً، وتنهدت تقريباً بإحباط ثائر وهو

يقول ساخراً: «هذا أشبه بأخذ قطعة الحلوى من يد طفل».

تركها بن وتراجع إلى الخلف، وهو ينظر إلى المشاعر البادية في عينيها البنفسجيتين، ثم أشار برأسه نحو الباب: «إنها جولتي الأولى، إذهبي واحصلي على قسط من النوم، فأنت بحاجة إليه. في السابعة عشرة كان بإمكانك أن تمضي الليل بطوله مستيقظة وفي الصباح تبدين رائعة، لكن الأشياء تتغير، أليس كذلك؟».

ورسم على ثغره ابتسامة خفيفة جافة.

معنى كلامه أنها ستبدو مرهقة في الصباح، وأنها فقدت كل ما جذبه إليها ذات يوم، عندما كان يعجز عن النظر إليها من دون أن يشعر نحوها برغبة جارفة في ضمها.

لم تعرف كيف استطاعت السير إلى الغرفة، فقد كان الإذلال الذي شعرت به عنيفاً بحيث أوهن قواها.

* * *

عندما استيقظت كارولين دهشت لأنها نامت حقاً، ولم تدهش لرؤية السواد حول عينيها. أما بشرتها التي كانت بطبيعتها شفافة فبدت كامدة تحت أشعة شمس الربيع المتألقة التي تغمر الغرفة.

لا... لم تعد في السابعة عشرة، وعادت سخريته المهينة تلسعها. إنها في التاسعة والعشرين وكان عليها أن تكون أكثر ذكاء لتمنع رجلاً حقيراً مثل «بن دكستر» من أن يثيرها بهذه السهولة...

اكتسحتها موجة من العار وجعلتها تشعر بالغثيان. لقد خانها جسدها كما سبق وخانها بن دكستر منذ سنوات طويلة.

هزت رأسها ثم ضغطت على صدغيها بأصابعها. هكذا إذن... لقد تصرفت بحماقة كتلك المراهقة الساذجة التي كانتها عندما

خرجت من الغابة المنعشة عصر ذلك الصيف الحار، لتجده جالساً على بوابة خشبية مؤدية إلى أحد مراعي أبيها المهملة.

كان يرتدي بنطلوناً رثاً، وحذاءً بالياً، وشعره المشعث يتطاير حول وجهه، وعيناه السوداوان تتراقصان. سحرتها ابتسامته الخطرة وهو ينزل على الأرض ويسير نحوها ببطء متعمّد.

ولم تستطع أن تتنفس فحارت في إعطاء الجواب عندما قال: «إذن، انتهت المدرسة. أعتقد أنه سيكون صيفاً رائعاً».

أنبأتها عيناه أن ما رآه أعجبه. كان جسدها الرشيق يختال بثوب ناعم جميل من القطن الصيفي، كما كان شعرها الأسود الطويل يصل إلى خصرها.

لم يحدث قط أن كانت قريبة منه إلى هذا الحد. وكان تأثيره مرهقاً. كانت تعرف طبعاً أنه وأمه، يعيشان في ذلك الكوخ المتهالك قرب الجدول، منذ عدة سنوات. وقد رأته في القرية مرة أو اثنتين وسمعت أقاويل عن سلوكه مع النساء واستطاعت أن تفهم همسات نساء القرية الرزينات لأن بن دكستر كان خطيراً. فهو رائع إلى حد قاتل وقادر تماماً على استيعاب الآخرين. ويتمتع برجولة أخاذة.

اكتفت بمنحه ابتسامة عريضة. وهكذا ابتدأ الأمر...

أطلقت كارولين آهة مرتجفة، ثم زمّت شفتيها. حينذاك كانت فتاة ساذجة حمقاء، والليلة الماضية تصرفت بالطريقة نفسها لو أن دكستر لم يُظهر لها عدم مبالاته.

ولكن، لم يعد هناك فائدة من التفكير المؤلم والتمني لو أنّ ما حصل لم يحصل. لقد حصل الأمر وعليها أن تمحوه من ذهنها، لتنقذ كبرياءها، فتخرج من هنا بأسرع وقت ممكن.

أنعشها الاستحمام قليلاً. لا يمكنها ارتداء الجينز والبلوزة التي أعارتها إياهما ليندا، خلال عملها في مخزن الأغراض العتيقة التي يعلوها الغبار. تريد في هذا اليوم، بالذات، أن تنقذ كرامتها لتحاول، بأي شكل، أن تمحو الخزي الذي لحق بها.

كما لن يكون «بن» موجوداً ليرى مظهرها، لكنها كانت تريد أن تبدو بأفضل حلة لرفع معنوياتها.

ارتدت البنطلون الكتاني الأنيق الذي ارتدته في المطعم مع البلوزة الصفراء الحريرية، والحزام الجلدي الضيق، ثم اهتمت وقتاً أطول من المعتاد بزينتها ثم عقدت شعرها بمشط مزخرف.

* * *

كانت ليندا جالسة إلى مائدة المطبخ وأمامها قصاصة ورق. وقفت باسمة، عندما دخلت كارولين:

ـ حسناً. كنت على وشك أن أترك ملحوظة، ولكن ليس عليّ أن أزعج نفسي الآن. ثمة أطعمة باردة في الثلاجة ومعلبات في الخزانة. يمكنك أن تأكلي منها ما تريدين. أظن أن الرئيس سيفعل الشيء نفسه... لقد غادر المنزل إلى «شروزبري»... ثم، لا تقولي لي بأنك سوف تعملين في المخزن بملابسك الأنيقة، ألم يناسبك البنطلون الجينز والبلوزة؟

نظرت كارولين إلى إبريق القهوة: «أنا واثقة من أنهما مناسبان، لكنني فكرت في ترك المخزن هذا النهار لأبدأ من الطابق الأول».

ورفعت إبريق القهوة: «أتريدين قهوة؟».

أجابت ليندا: «عليّ أن أرحل الآن، لكن عشر دقائق لن تشكل فرقاً كبيراً. والآن أخبريني ماذا تفعلين لتبدي بهذا المظهر الأنيق. لقد

وُلد معك، كما أظن. أنا، مهما لبست أبدو بمظهر سيء».

ـ أنا واثقة من أن كلامك غير صحيح.

قالت كارولين وهي تواجه المرأة الأخرى وتناولها القهوة والسكر. شعرت بنفسها وضيعة حقاً لأن ليندا تريد أن تتبادل معها الأحاديث بخلافها تماماً.

أرادت الليلة الماضية أن ترضي فضولها، قالت بن عن تيه بالنسبة للمنزل، والآن، بعد ما حدث، ستحرص على أن يكون بينهما أدنى درجات التواصل خلال الوقت الذي ستمضيه هنا. وبهذا تمنع أي حديث مطوّل يدور بينهما.

قبل أن تبدأ ليندا بالحديث عن الثياب وزينة الوجه، قالت لها: «يبدو هذا المنزل كمؤسسة اجتماعية. لقد أصبح مريحاً ومتألقاً أكثر مما كان عليه عندما كنت أعيش فيه. ما الذي ينوي السيد دكستر أن يفعله به؟».

حملقت ليندا فيها، ثم ابتسمت: «ألا تعرفين؟ لا، أنت طبعاً لا تعرفين وإلا لما سألت. لقد أنشأ مؤسسة خيرية جند فيها مبلغاً طائلاً من ماله الخاص وسيساعد الدخل الناتج عن ملعب الغولف ومركز العطلات في تأمين الصيانة، ودفع رواتب المستخدمين. هذه المؤسسة هي للأولاد الفقراء... وتهتم بعطلاتهم وإجازاتهم الأسبوعية. إنها فكرة نيرة... وتتطلّب نشاطاً في الداخل والخارج، هناك مزرعة صغيرة، وحدائق، وميدان خيل وزوارق لصيد السمك... إنها تجعل الأولاد يدركون أن في الحياة أشياء أكثر أهمية من التسكع في الشوارع».

بعد رحيل ليندا بوقت طويل، كانت كارولين لا تزال تحت تأثير

الصدمة، فما أخبرتها به مدبرة المنزل لم يتناسب مع الصورة التي كونتها عن ذلك المتغطرس المخادع الأناني.

إنها صورة رسمتها تصرفاته الليلة الماضية، وإعلانه أنه ربح الجولة الأولى، وكأنه أحضرها إلى هنا لتخوض معركة. تفاقم أمس شعورها بالخزي والارتباك بحيث لم تستطع أن تسأله عن خططه.

هل كانت مخطئة تماماً بحقه؟ أتراها أخطأت في الحكم عليه؟

نهضت متثاقلة، وأبعدت ذلك الرجل الغامض من ذهنها. فلديها عمل عليها إنجازه، ولا جدوى من تبديد طاقتها على رجل أعلن نفسه، عدواً لها.

صعدت السلم واتجهت الى غرفة أبيها. كانت الخزائن الثقيلة خالية، وكذلك الأدراج التي أفرغتها «دوروثي سكيت» المسكينة. القطعة الوحيدة القيّمة هي السرير الإيطالي المنقوش والمذهب.

وضعت ملحوظة في دفترها بشأن تبيعه، ثم خرجت من الغرفة بسرعة. لماذا لم يحبها أبوها قط؟ بل لماذا كرهها؟

عزمت في ذهنها على زيارة دوروثي قبل أن تعود إلى لندن، وأرغمت ذكريات طفولتها المزعجة على العودة إلى الوراء، ثم تابعت عملها. الغرف التي لم تكن تستعمل أيام أبيها، بدت الآن مشرقة، ومؤثثة بأسرّة مزدوجة وخزانات ملونة، للأحداث اللذين سيمضون أوقاتاً هنا.

لا بد أن بن دكستر وظّف قسماً هاماً من ثروته في هذا المشروع الخيري لأنه تذكر طفولته المحرومة.

لقد ساندت البلدية وضع أمه، إلى حد ما، فحاولت «جانيت دكستر» زيادة دخلها بزراعة الفاكهة وبيعها لكن الفلاحين كانوا يرتابون بتلك المرأة المتجهمة وبابنها القاسي فرفضوا الشراء. وتذكرت كارولين الآن أن هناك من هددها بأن يشكوها إلى دائرة الأمن الاجتماعي لمحاولتها القيام بمشاريع.

لا بد أن حياتهما كانت صعبة. أما سبب مجيء الأم وابنها إلى هذه القرية، فبقي مجهولاً، ورغم صلتهما، هي وبن الحميمة، لم يأت قط على ذكر حياته السابقة. كانت لديه دوماً أشياء يخفيها، حتى في ذلك الحين.

عضت شفتها إعجاباً بما صنعه بنفسه، للأولاد المحتاجين، لكنها لم تشأ أن تظن به الخير. لا يمكنها ذلك لأنها ستسقط فريسة سحره، كما اعترفت بصدق. لقد أدركت ذلك الليلة الماضية.

ولكي تبقى صورته مشوّهة في ذهنها، ذكّرت نفسها بالطفلة التي أنجبها ثم تخلى عنها بقسوة. لقد أخبرها أبوها بأن ماغي بوب هي امرأة فاسدة، وحذرها من التعامل معها. وإلاّ فسيحبسها في غرفتها حتى يحين موعد عودتها إلى المدرسة.

قال لها: «إسألي ماغي بوب من هو والد طفلتها، ألا تصدقينني؟ إذهبي واسأليها!».

هزت كارولين كتفيها وقد همد جسدها فجأة وكأن ماءً مثلجاً سُكب عليها. كان ذلك أسوأ يوم في حياتها، ولم تشأ معاودة التفكير فيه لكنها لم تستطع أن تمنع تلك الصور عن ذهنها.

كان عمر الطفلة حوالى الشهرين حينذاك، وشعرها الحريري

الأسود كشعر بن تماماً.

قالت ماغي ساخطة: «إنها ابنه بكل تأكيد، لكنه لا يريد أن يعترف... هذا هو نوعه تماماً. يترك الفتاة ما إن يصادف فتاة أفضل... لا يتحمل المسؤولية!».

ابتلعت كارولين ريقها بصعوبة وأرغمت تفكيرها على العودة إلى العمل في الجناح القديم الثيودوري الطراز الذي ألحق بالقسم الرئيسي من المنزل. كان هناك مكواة قديمة ولكنها اختفت فتملكها القلق لأنه لم يكن لحضورها أي ضرورة. القطع القليلة القيمة واضحة ولقد أحضرها بن دكستر إلى هنا بحجة زائفة، ولكن لماذا؟

وبحركة آلية، ارتفعت يدها إلى مزلاج الباب المصنوع من خشب السنديان والذي يؤدي إلى الجناح القديم. هذه الغرف، القائمة فوق المطبخ، كانت محرّمة عليها وهي طفلة.

لطالما أنذرتها دورولي سكيت: «إنها مليئة بالحشرات والزواحف، كما أن الأرضية مهترئة».

وكانت في الثامنة من عمرها عندما تحلت بالشجاعة لتختبر أنفها.

لقد تغير كل شيء الآن. اشتُغل الخشب المفتت بخشب السنديان، وتسللت الشمس من خلال النوافذ، على السجاد العجمي الممدود على الأرض المصقولة. كان واضحاً أنها غرفة جلوس وكان بن يحتفظ بها لاستعماله الخاص، فالغرفة المؤثثة بجمال علقت فيها اللوحة التي جمعتهما معاً، وهي (الحب الأول).

حبست أنفاسها وأخذ قلبها يخفق. لو أن «ميكيل» لم يحز لوحة «لاسون» الضائعة أو لو أن بن لم يشأ أن يمتلكها، لتابعت حياتها

بهدوء. وما كان الحنين المؤلم القديم ليطفو بهذه القوة لأنهما عادا فاجتمعا مرة أخرى.

تصلّبت وهي تحدق إلى الصورة التي كان يمكن أن تكون صورتها معكوسة في المرآة. لقد أمضت وبن عدة أشهر من السعادة وكانت خيانته قاسية. لكن هذا كان منذ اثني عشرة سنة. ويجب أن تنسى وتدوّن ذلك في تجارب الحياة.

- هل توافقين؟

كان صوته بالغ النعومة. فانتفضت كارولين لا إرادياً وقد أفاقت من أفكارها. ثم التفتت مكرهة لتواجهه، وقد اتسعت عيناها البنفسجيتان في وجهها الرقيق الشاحب.

كان يبدو رائعاً في بذلة زرقاء بديعة التفصيل، وقميص أبيض منشى وربطة عنق رزينة. لم تسمع هدير سيارته في الخارج لأنها كانت تقف في القسم الخلفي من المنزل. ولو أنها سمعتها لتهربت حتماً من هذا الموقف. والآن، لم يعد أمامها سوى أن تجيبه على سؤاله: «إنها لوحتك وأنت حر في تعليقها حيث تشاء. رغم أنني أرجو أن تزودها بجهاز إنذار لحمايتها من السرقة».

- المنطق هو الذي يتكلم يا كارولين هارلي.

وكان يبتسم قليلاً، لكن عينيه بدتا باردتين كالفحم المصقول: «ولكن دعينا نلقي نظرة شاملة. ألا توافقين على مكان الصورة؟ لتعود إلى البيت الذي كانت فيه؟».

وبدا المرح في صوته الآن ما أثار سخطها وقالت بجرأة: «هذا هراء».

كان يعبث معها، وهي لا تريده أن يتسلّى على حسابها: «أنت

تتكلم وكان صورتي معلقة على هذا الجدار، وأنت تعلم جيداً أن هذا غير صحيح. والآن، عن إذنك...».

رد بهدوء: «لا ولكنها قد تكون صورتك. أليس كذلك؟ عندما قرأت المقال عن هذا الاكتشاف الجديد ورأيت الصورة، أدركت أن عليّ شراءها وتعليقها هنا، لكي تذكرني بأن الأشياء ليست دوماً كما تبدو. إنها تبدو مثلك، لكنها ليست أنت. تماماً كما أنك، عندما عرفتك، لم تكوني كما ظننتك».

فردت عليه بعنف: «إنه القدر الذي يقول كلمته كما يقول المثل!».

هذا الرجل حاقد! أتراه كرهها لأنها بعثت رسالة تقول له فيها إنها لا تريد أن تراه مرة أخرى؟ أما زال غروره جريحاً لأنه نُبِذ مرة بعد كل تلك السنوات؟

أخذ الأمر يزداد وطأة عليها. ستترك العمل، وفي هذه الدقيقة بالذات.

قالت بصوت حاولت أن يبدو بالغ البرودة: «يا سيد دكستر، لم يعد من ضرورة لوجودي. إن خبرتي المهنية لم تكن مطلوبة منذ البداية. وحسب ما أرى، لقد سبق وتخلصت من معظم الأثاث البخس وأبقيت على القطع الجيدة. سأمرّر لك تقييم ويتبرع خطياً».

- ما ألطفك!

ورفع حاجبيه ساخراً. كان يسد الطريق إلى الباب، ولكي تصل إليه قد تحتك به وهي تمر بجانبه. لم تستطع أن تواجه ذلك. فمجرد وجودها معه في غرفة واحدة يضعفها.

ابتلعت ريقها بصعوبة، بينما قال بن ببطء: «كلامك صحيح

فخبرتك المهنية لم تكن مطلوبة. لكن لدي طلبات أخرى، يا كيري... وعليك أن تستجيبي لواحد منها. عند ذلك فقط، يمكنك أن تكوني حرة في الذهاب».

ألقى عليها نظرة طويلة متأملة: «أقترح أن نتوقف عن التظاهر بالتحفظ ونبدأ الآن جلسة المصارحة».

• • •

٦ ـ مخبأ الزمن الضائع

ـ ولماذا عليّ أن أوافق؟

سألته كارولين برباطة جأش كانت بعيدة للغاية عنها. لقد كان قلبها يخفق بعنف بينما أخذت أوصالها ترتجف كلها.

شعرت بالنار تغلي داخلها وبالعرق يتصبب من جبينها بسبب الصراع القائم بين كرامتها وقلبها. أجاب بحدة وهو ينظر إليها بعينين ضيقتين: «لأنك مدينة لي. أضعت عليّ اثنتي عشرة سنة سدى».

حدثها عقلها بأن تخرج من هنا، وتحزم أمتعتها ثم تتصل بسيارة أجرة. لا يمكنه حجزها هنا بالقوة! لكن قلبها كان يطلب منها أن تبقى.

هل تركت العلاقة التي جمعتهما يوماً أثراً لا يُمحى فيه، ما جعله يقلع عن مبدئه مع النساء وهو (أحببهن ثم اتركهن)؟... ربما هو القدر الذي جمعهما مرة أخرى لأن الوقت حان لينتهي ما بينهما وليتخلصا من عقدة الماضي نهائياً.

إذا كان هذا هو الحل فلا يمكنها أن تهرب من هذه المواجهة النهائية: «نظراً لإنجازاتك الهائلة، لا يمكن أن تعتبر اثنتي عشرة سنة، وقتاً ضائعاً».

تمكنت من أن تتفوه بكلامها متلهفة إلى إضفاء جو طبيعي على هذا الحديث الذي يوشك أن يتحوّل إلى شيء آخر. واعترفت بعجز بأنه لا يمكن أن تكون قد جرحته كما جرحها، وإلى حد عميق للغاية. . .

ـ ليس هذا ما أتحدث عنه، وأظنك تعلمين ذلك.

وبخطوتين أصبح واقفاً أمامها، فسيطر بكتفيه العريضتين على الموقف.

وببطء متعمّد، ابتدأ يلامس وجهها، وعيناه مسمرتان عليها، ما جعلها عاجزة عن الكلام. قال: «اثنا عشر عاماً وقت طويل، يا كيرو. يا له من وقت طويل تركتني خلاله في عالم النسيان».

أحنى رأسه يعانقها فتأرجحت برقة معلّبة. وضعت يديها على صدره متحسسة قوته، ودقات قلبه، وأدركت أنها سرعان ما ستذوب بين ذراعيه وتسقط أرضاً إن لم يمسك بها.

ـ سنوات وأنا أحلم بما يتمناه كل رجل. . . زوجة وأسرة.

قالها بشيء من المرارة وهو يحضنها بشدة: «لطالما رغبت في علاقة طويلة الأمد، لكنني عجزت دوماً عن الارتباط لأنني لم أجد امرأة تشبه بصفاتها ما أتذكره».

تملكها الشك وهي تسمع نبرة العذاب القوية في صوته... وهمس صوت في داخلها يحذرها. . . هذا خداع! وقالت بصوت متقطع:

ـ أنت اشتريت تلك اللوحة. . .

ـ لكي تذكرني بأن الأشياء ليست تماماً كما تبدو، أو كما نريدها أن تكون.

كرر قوله ولكنه لاحظ ملامح المقاومة في عينيها، فوضع إصبعه على فمها: «لا تتكلمي، امنحي نفسك فقط سحر اللحظة التي أنت فيها».

ابتلعت كارولين ريقها وشعرت بغصة في حلقها. كان الجزء ينبض بالتوقع لما سيحدث بينهما ففتشت في وجهه عن العاشق الذي كانه، متلهفة إلى العثور عليه مرة أخرى، وسماع كلماته التي كان يسحرها ويأسرها بها.

ولكن ما إن ضمها إليه في عناق محموم، حتى أبعدها عنه بعنف قائلاً بخشونة: «اعتبريها الجولة الثانية! ولكنني بحاجة إلى أن أثبت لنفسي أن ما كنته بالنسبة إليّ يكمن فقط في ذهني أنا. وأنك لا تختلفين عن غيرك من النساء».

كانت الابتسامة الساخرة على وجهه هي آخر ما رأته قبل أن يرحل.

* * *

لا بد أنها استغرقت في النوم ما إن استلقت على سريرها. فالمشاعر التي عرفتها قد أرهقتها.

كافحت لكي تستيقظ تماماً. وكان شفق الغروب يملأ الغرفة. وكانت وحدها.

طبعاً كانت وحدها. واغرورقت عيناها بالدموع. لقد عاملها بن بأنانية، ثم نبذها. كان الأمر بمنتهى البساطة والدمار.

عندما أخبرها بالضبط رأيه بها جعلتها الصدمة عاجزة عن فعل الشيء المناسب، وهو أن تصفع وجهه المتغطرس ثم تتركه وتذهب.

انهمرت دموعها على وجهها الشاحب.

مسحت وجهها المبلل، ونزلت عن السرير. لبست ثيابها بسرعة تريد أن تخرج من هذا المنزل الذي لم تجد فيه السعادة طوال حياتها.

تأخر الوقت الآن على القيام بترتيبات السفر إلى لندن. كما أنها كانت تشعر بأنها مستنزفة، وفي حالة غير مهيأة للسفر.

ستشعر غداً بتحسن. أما الليلة فستحزم أمتعتها، وفي الصباح الباكر ستتصل بسيارة تنقلها إلى «شروزبري» لتستقل القطار إلى لندن عائدة إلى سابق حياتها.

لن يشكوها بن لرئيسها، كما ذكرت ساخرة. فسيكون سعيداً لرحيلها.

كان الجو في الخارج أبرد مما توقعته لكنها لن تعود لتحضر سترة ترتديها، خصوصاً وأن في ذلك مجازفة في لقاء بن. لن تتمكن من النظر في عينيه دون أن تشعر بالخزي.

ودون وعي منها، جالت في الأراضي، واجتازت الحدائق الغناء، ثم خرجت من الباب الخشبي القائم في الحائط البعيد. كان العشب طرياً تحت قدميها وسرعان ما أصبحت تحت عريشة تحيط بالجدول.

خفف خرير المياه عنها بعض الشيء وأزال حفيف الأوراق توترها.

أخذت تدعك ذراعيها اكتساباً للدفء. لم تحمها بلوزتها الحريرية الرقيقة من برودة المساء، فدخلت إلى الفسحة المعشوشبة. وكان الضباب المتصاعد من الماء يشكل حاجزاً طبيعياً أمام الأشجار

المظلمة.

عندما رأته، توقفت عن التنفس. أدركت متأخرة غلطتها في القدوم إلى هذا المكان الذي دفعتها إليه غريزتها، هذا المكان السري الذي لطالما شهد لقاءاتهما وحبهما، وحيث نشأت أحلامهما التي تحوّلت إلى كوابيس من الخيانة والخداع.

ما الذي جعلها غافلة؟ والأهم من ذلك، لماذا هو هنا؟

كان بن واقفاً على ضفة الجدول، مركزاً اهتمامه، كما يبدو، على المياه القاتمة التي كانت تتدفق حول الأحجار المغمورة جزئياً.

ودارت كارولين بخفة على عقبيها لتعود من حيث أتت ولكنه سمع خطواتها، فناداها.

أرسل صوته قشعريرة في كيانها، وشعرت بقدميها تتسمران على الأرض. سمعته يقترب منها لكنها لم تستطع الحراك.

- لا تذهبي، عليّ أن أتحدث إليك.

كان صوته واهناً وكأن شيئاً ما استنزف منه القوة.

لم تشأ أن تسمع ما سيقول، مهما كان نوعه. فقد حطّ من قدرها وجعلها خجلى من نفسها.

قالت متمسكة بآخر ما بقي لديها من كرامة: «أنا عائدة إلى المنزل فقد اشتد الظلام وأشعر بالبرد».

- سأسير معك إذن. انتظري!

أضاف الكلمة الأخيرة بعد أن قامت بخطوة نحو الغابة. لمسة يده على كتفها كانت عذاباً حقيقياً، فالدفء والقوة أرسلا في جسدها شرراً.

أدارها إليه وهو يتفحص وجهها، فرأت، رغم ضوء النهار

الخافت، الابتسامة الخفيفة على شفتيه: «تبدين بالضبط كتلك الفتاة البريئة التي اعتدت رؤيتها...».

خلع سترته الجلدية ووضعها على كتفيها.

هزّها دفء الرجولة الذي كان مختزناً في سترته، ولكن ليس بقدر الصدمة التي شعرت بها فأوقفت قلبها عن الخفقان وهي تدرك أنها، بالرغم من الماضي والحاضر، ما زالت تحبه.

انزعجت كثيراً لأنه لا يحبها ولم يحبها قط. بالرغم من كل مزاعمه، كانت مجرد نزوة بالنسبة إليه.

لقد اعترف اليوم بأن ذكرى حبهما أعاقت زواجه من امرأة أخرى.

يمكنها أن تتفهم، وتتعاطف معه، إذ يمكن للذكريات أن تكون خطرة، وتحرّف الأشياء. وها هو ذا الآن معها يريد أن يقنع نفسه بأنها مجرد امرأة كغيرها من النساء، ولا تختلف عنهن.

لقد أطلقت سراحه الآن... لكي يفعل ما يريد... يتزوج بأخرى وينشيء أسرة. ألهذا السبب هدأ مزاجه وازداد اهتمامه بها وهو يقودها وسط الظلام؟ ربما هذا هو الواقع.

لدى خروجهما من بين الأشجار، تعثرت فكادت تقع لولا ذراعه التي كانت حول خصرها.

سمعته يتنفس بقوة. وشعرت بضربات قلبه تحت راحتيها اللتين ألقتهما عليه بحركة آلية، طلباً للسند. من السهل أن تغتنم الفرصة وتأخذ منه قدر ما تريد في هذا الوقت القصير الذي بقي لهما معاً. لكن ذلك سيهدد سكينتها في المستقبل. فابتعدت

عنه.

ابتعدا عن الأشجار واتجها الى حيث كانت النجوم تملأ السماء فاتضحت الرؤية أكثر. والتزم هو الصمت، رغم قوله إنه يريد أن يتحدث إليها، وسار بهدوء أشبه بألم لا يُطاق.

ذكرت نفسها أنها سترحل في الصباح الباكر. وربما سيكون هذا المساء ليلة وداعهما الأخيرة. الثأر من الطريقة القاسية التي استعملها معها، لن يجدي نفعاً. فما من إنسان سيء كلياً... وعندما وصلا إلى المنزل أدركت أن عليها أن تعبّر عن إعجابها بصفاته الحسنة.

انتظرت ريثما أقفل الباب خلفهما وأضاء الأنوار، ثم قالت وقد سلب الحزن والألم الحياة من صوتها: «أخبرتني ليندا ما تنوي فعله بالمنزل، أظن الأمر رائعاً...».

التوى فمه، وعيناه تسخران منها، فمن الواضح أنه لم يكن مهتماً بالمديح. وخصوصاً منها هي. وعاد يقول: «الأمر يدعو إلى السخرية، أليس كذلك؟ لقد أنقذت منزل أسرتك الموقرة من الانهيار، فقط لأملأه بأولاد الفقراء. سيتقلب أبوك في قبره لو علم أن ابنته الغالية تواجه هذا الوضع. اعتاد القرويون أن يسموك «الأميرة كارولين»، هل كنت تعلمين؟ فأنت منزلة في برجك العاجي، وأرفع من أن تختلطي بأمثالهم؟».

هذا العداء السافر كان كافياً ليحطم قلبها. خصوصاً وأنها تعلم جيداً أنها اعتزلت في غرفتها مدة طويلة.. إذ لم تستطع أن تحب رجلاً آخر كما أحبت هذا الرجل.

امتزج الغضب بالتعاسة لسخرية القدر منها، فواجهته بصوت

خشن: «طبعاً كنت أعلم! وقد آلمني الأمر. وبالنسبة إلى أبي، لم يكن بإمكاني العودة إلى هنا. لقد تبرأ مني في النهاية وطردني من المنزل عندما رفضت أن أطيعه وأقبل بخطبة جيريمي».

رأت تقطيبته السريعة، وسمعت شهقته الحادة وهو يسألها: «هل هذا صحيح؟ لقد قال أبوك إن خطبتك ستتم في عيد ميلادك الثامن عشر... أي بعد عدة أسابيع فقط، وإن الزواج سيتم في الربيع».

ـ حقاً!

لم تستطع أن تلوم أباها. كان يقول ما كان يعتقده الحقيقة، فهو كالعادة كان ينوي أن يرغمها على طاعته. لكن يمكنها أن تلوم دكستر لأنه صدّق كلام أبيها دون أن يتحقق منه.

وسألته بمرارة: «ومتى قال هذا؟ عندما عرض عليك مالاً لترحل؟».

ـ نعم.

أكدّ الأمر ببساطة، دون أن يبدو عليه الندم. يا للغباء! كانت ترجو أن ينكر أنه أخذ ذلك المال، لتكتشف أن غدره بها لم يكن بتلك القسوة التي اعتقدتها، وأن أباها كذب عليها.

هبطت كتفاها، وخلعت سترته وألقت بها على الأرض. كانت تشعر بالتعب وبالخواء فأصبح الوقوف مجهداً لها. تريد النوم، هذا ما كانت بحاجة إليه. وغداً، ستترك صدمة هذا النهار وراء ظهرها تتمكن من الرحيل.

سارت نحو السلم وهي تترنح، فسمعته يقول بلطف: «لا. لا تمشي...».

اندفعت هاربة نحو السلم، لكنه تابع يقول: «إصغي إليّ، أرجوك. أريدك أن تنسي كل ما جرى بيننا. أريدك أن تتزوجيني».

***

٧ ـ أغنية في دمي

التفتت كارولين بسرعة. ـ أكثر مما ينبغي، وقد دار رأسها. وكانت ستقع لو لم يضع بن ذراعه حولها ويجذبها نحو صدره الواسع.

كان عرضه المفاجئ للزواج آخر ما تتوقع سماعه. وقبولها له ـ هذا إذا كانت مجنونة لتقبل به ـ سوف يطرح تعقيدات تعجز عن مواجهتها.

ذات يوم كان الزواج من بن دكستر، أغلى أحلامها. إنما الآن، بعد كل ما حدث ومرور سنوات كثيرة، أصبح ذلك مستحيلاً. اهتزت كتفاها بانفعال شديد ولم تلبث دموعها أن انهمرت على قميصه.

قال مخففاً عنها: «لا تبكي. أرجوك لا تبكي. ما كان لي أن أعرض عليك الزواج بهذا الشكل المفاجئ».

يداه القويتان أبعدتاها قليلاً عنه ليمسح دموعها عن خديها وهو ينظر إلى ملامحها المنزعجة: «لا أتوقع أي جواب الآن، يا كيرو. فأنت بحاجة إلى وقت للتفكير. فكرت في الأمر ملياً منذ ذاك الحين، إلى أن استقر رأيي».

ابتسمت عيناه، وهو يحيط خصرها بذراعه ويلحّ عليها قائلاً: «أظن أننا سنكون أقل تشوشاً إذا أكلنا. سأعد الطعام على الموقد».

أخذت كارولين نفساً عميقاً، في محاولة منها لمقاومة رغبة قوية في الاستسلام لنوبة أخرى من الانفعال، وقالت: «لا أستطيع أن أتزوجك، وأنت تعلم هذا... طلبك جنوني!».

شعرت بالاضطراب والحزن ولم يخفف عنها سؤاله المتكاسل (الماذا؟). وابتعدت عنه وهي تتنفس بصعوبة. فمنذ عادت إلى بيتها هذا فقدت شعورها بالواقع وعليها أن تستعيده بشكل ما. وقالت بعد أن استعادت شيئاً من هدوئها وعزمها، وكذلك دفاعاتها ضد الرجل الذي يتلهف إليه قلبها الغبي:

- لأن ما تشعر به نحوي هو مجرد رغبة... دون ذكر الازدراء. لذا لا يمكن أن ينجح زواجنا.

- الازدراء... نعم. لقد كان موجوداً.

اعترف برقة، وبعد لحظة عاد يقول: «لوقت طويل اعتقدت أنك كنت مصممة على الزواج من ثروة «جيريمي كيرتس». أردت، في ذلك الحين، أن أسألك عن صحة الخبر، لكنني عندما عدت إلى القرية وجدت تلك الرسالة التي أخبرتني فيها أن كل شيء انتهى بيننا وأنك لا تريدين أن تريني مرة أخرى. وبالنسبة إليّ، أثبت كلامك كل ما أخبرني به أبوك».

وقف أمامها ويداه في جيبي بنطلونه، والكآبة في عينيه السوداوين: «كنت مضطراً ذلك النهار إلى السفر. لقد أدركت متأخراً، أنه كان عليّ أن أخبرك بخططي، وأوضح لك سبب غيابي، لكنني لم أكن واثقاً حينذاك من أن خططي ستنجح. أظنني كنت مخطئاً لكنني أردت أن أفاجئك بنجاح فعلي وليس بأحلام. منذ أكثر من ستة كنا أنا وصديقي القديم «جيم مايس»، نحاول أن نؤسس شركة

للملابس الداخلية. بعد ذلك الاجتماع المشؤوم مع أبيك، اتصل بي «جيم» وطلب مني أن أترك كل شيء، وأسارع إلى لندن لأنه وجد ممولاً يتوسم فيه الخير وهو سيكون موجوداً في لندن لبضع ساعات فقط ذلك النهار. طيلة الاجتماع، وأنا متلهف للعودة إليك لأعرف الحقيقة منك. ولكن، في اللحظة التي وصلت فيها أعطتني أمي رسالتك. ومنذ ذلك الحين وأنا أحتقرك. أما الآن فأتقبل أن أصدق تفسيرك لما حدث وهو أن أباك طردك من المنزل لأنك رفضت أن تتزوجي جيريمي كيرتس. أما بالنسبة إلى رسالتك تلك، فأظن أن الأمر عائد لصغر سنك حينذاك. ولذا إنني مسألة الاحتقار يا كيري، فهي لم تعد واردة.

أما بالنسبة إلى طبيعة حبي، فما هو العيب في ذلك؟ نعم، أنا أعترف بأنني أخطأت في إحضارك إلى هنا زوراً. كنت أريد أن أثبت لنفسي أنك لست امرأة استثنائية، ولكن تصرفاتك أثبتت العكس. لم أجد امرأة أخرى تشبهك. أنت أغنية تسري في دمي وأنت جرح بالغ يتخر في عظامي... وأنا أظن... لا بل أعلم بأنك شعرت بذلك أنت أيضاً. لم ينته الأمر يا كيري، بل دام اثني عشرة سنة طويلة. حبنا لا يموت».

كلماته أربكتها وأبهجتها في آن معاً. بإمكانها أن تنكر المنطق بسهولة وتذعن إلى تلهفها في الزواج من الرجل الذي تحب، أن تأخذ منه ما تستطيعه ما دامت مشاعره نحوها موجودة.

ضغطت بيأس على صدغيها، ستكون النهاية سريعة. وخصوصاً عندما تكون دوافعه هي الرغبة وذكريات صيف رائع ساحر، فيما دوافعها هي حب ممزوج بعدم الثقة؟.

صحيح أنه عاد حينذاك ليبحث عن الحقيقة، لكن تصرفه يثبت صراعه. فقد عاد بالرغم من أنه أخذ مبلغاً من أبيها ثمناً لوعده بأن يبتعد عنها.

وهزت رأسها دون وعي: «لا بأس. أنا أتفق معك بأنه يصعب على كلينا أن يجد رفيقاً يتمتع بالمواصفات التي نريدها. لكن المسألة الأساسية يا بن هي أنك خدعتنا جميعاً. خدعت أبي، وماغي بوب، وأنا. الناس لا يتغيرون، وأنا سأبقى معك أنتظر على الدوام أن يتكرر الأمر مجدداً».

وعندما يحدث ذلك، ستحطم هي تماماً ونهائياً.

دقت ساعة الحائط معلنةً التاسعة فقال بن بخشونة: «ما الذي تتحدثين عنه...؟».

وإذا بجرس الباب يرن فقال: «انتظري. سأتخلص من الطارق أياً يكن، وبعد ذلك يمكنك أن تخبريني ما تعنين بكلامك».

لاحظت الضيق ونفاد الصبر في خطواته الواسعة وهو يندفع إلى الردهة، فارتجفت.

كان يجمع في شخصيته كل ما تطلبه في الرجل. لقد دمرت مشاعرهما حياتها العاطفية سنوات، وكذلك حياته العاطفية كما يبدو. بإمكانها أن تفهم، وتصفح أيضاً، عن تصميمه على التخلص من تأثيرها عليه ولكنه فشل.

ولقد عمل وفقاً للمثل القديم الذي يقول: (إما أن تتزوج وإما أن تحترق) فقرر أن يعرض عليها الزواج.

وهي الآن تحترق. الحب يشتعل داخلها لأنها، رغم علمها بأن الزواج سيكون انتحاراً عاطفياً، تريد أن تقبل به بلهفة وكان ثمة ما

يدفعها إليه.

ربما يتفاهمان على الأمر بعد أن يتخلص من الزائر، وإذا أعرب لها عن ندمه على تصرفه مع ماغي، وأعلن أنه سيعطي ابنته التي أنكرها طوال تلك السنوات، دعماً مالياً وأبوياً. وإذا أخبرها بأنه كان ينوي حتماً إعادة المال الذي أخذه من أبيها، معترفاً لها بأنه لم يكن يريد أن يبقى بعيداً...

لكنه شرّع الباب على مصراعيه وهو يقول بأدب: «طبعاً، لا تزعجينا. إنها هنا، تفضلي».

ودخلت «دوروثي سكيت» ببطء إلى الردهة المضاءة وقد حوّلت السنوات امتلاء جسمها إلى سمنة، وبان الشيب في شعرها الأشقر.

قالت المرأة مترددة: «سمعت أنك هنا، يا آنسة كارولين، لكنني لم أعلم إلى متى. أعرف أن الوقت متأخر قليلاً لكنني لم أشأ أن تفوتني رؤيتك».

قفز قلب كارولين، بارتباك أولاً ثم بمزيد من الثقة وهي تتقدم إلى المرأة تحتضنها. شعرت بنفسها تختنق بالدموع التي أوشكت أن تنهمر. فالحنان الوحيد الذي وجدته في هذا البيت، صدر من هذه المرأة، وإن كان في المناسبات فقط.

قال بن بعد الصمت الذي ساد بينهما: «هلاّ دخلنا المطبخ جميعاً؟ كنت على وشك إعداد العشاء، لماذا لا تشاركينا يا دوروثي؟».

فقالت مضطربة وقد احمر وجهها: «آه... لا أستطيع، لقد تركت الشاي لتوي. لا أريد أن أكون متطفلة فقد جئت فقط لأسلمك أشياء أبيك الشخصية».

وأخذت تبحث في حقيبتها وقد بدت الدموع في عينيها. كان واضحاً أن المرأة منزعجة، ولم تعرف كارولين ماذا تقول لتشعرها براحة أكبر. سارع بن لنجدتها بابتسامة لا تقاوم، وهو يقترح: «تعالي إذن واجلسي معنا ونحن نأكل، واستمتعي بكأس من العصير... أو القهوة إذا شئت... ثم حدثينا عن أقاويل القرية. أنا أعرف أن كارولين تريد أن تعرف ما فاتها خلال السنوات الماضية».

لم يكن كلامه صحيحاً، لكن نتيجة كلامه كانت تستحق العناء، إذ رأت كارولين عيني المرأة تلمعان وقد بدا عليها الارتياح فجأة.

كانت مديرة منزل أبيها تهوى الشائعات، وتساءلت إن كانت هذه المرأة قد علمت بعلاقتهما وأخبرت أباها، ما يفسر السبب الذي جعل عدم الارتياح يبدو عليها فجأة عندما رأتهما معاً.

صرفت كارولين هذه الفكرة من رأسها وهي تسير خلف بن ودوروثي إلى المطبخ. لم يعد الأمر مهماً الآن، فلتدع الماضي في مكانه.

حتى ولو بقي أبوها جاهلاً بالأمر، وتزوجت هي بن عندما أتمت الثامنة عشرة، كما اقترحت في أكثر من مناسبة، لكانت النتيجة نفسها. ستتحطم علاقتهما وستزول النضارة عن عينيها عندما تعرف بأمر ابنته الصغيرة التي هجرها.

سيبقى الأمر ماثلاً في ذهنها على الدوام، وهو يدعم موقفها الرافض لعرض الزواج المفاجىء.

كيف يمكنها، حتى في أضعف لحظاتها، أن تفكر في الزواج من رجل يجعلها سجله الماضي تنكمش فزعاً، وينحصر اهتمامه الحقيقي بها في إشباع نزوة لم تمت بالرغم من السنوات التي فرقت بينهما؟

بالرغم من أفكارها، كان من الصعب أن تبقى في مزاج كئيب بينما ترشف دوروثي سكيت فنجان الكاكاو وهو شرابها المفضل، مستمتعة بآخر الشائعات في القرية، بعضها مرح والبعض الآخر فيه افتراء.

شعرت كارولين بشهية أدهشتها، والتهمت شرائح اللحم المشوية مع البندورة التي أعدها بن. ضحك بن وهو يعيد ملء كأسيهما: هو وكارولين، داعياً دوروثي للبقاء حيث هي عندما همت بالمساعدة في إخلاء المائدة ثم خاطب كارولين: «لا تصدقي نصف كلامها. في كل وقت تُذكر فيه قصة ما، تتخذ القصة شكلاً جديداً وتتلون وفقاً لأبعاد جديدة».

ابتسمت له كارولين: «صحيح تماماً».

جوّ الاسترخاء، الطعام البسيط والشراب الرائع، الضحك، الرعب الساخر الذي بدا على بن وهو يبسط يديه وقد جحظت عيناه بعد سماعه إحدى تعليقات دوروثي الماكرة، كل ذلك بدد توتر الوضع.

وهكذا، عندما أخرجت دوروثي رزمة من حقيبتها ناولتها إلى كارولين، نظرت إلى أشياء أبيها الشخصية شاعرة بالانقباض في قلبها.

ساعته الفضية التي كان يستعملها دوماً، ويضعها في جيب صداره مع السلسلة، الخاتم الذي ورثه عن أبيه وأصبح الآن رقيقاً مع مرور الزمن، وقلما حبر... لم تكن مقتنياته كثيرة بالنسبة إلى سنواته الستين لكن إحساسها بفقدانه كان عميقاً وهي تعود فتلف هذه التذكارات المثيرة للمشاعر. وعلى كل حال، جاهدت في ألا تظهر

ذلك وهي تعيد اللفافة إلى دوروثي قائلة بلطف: «أعلم أن أبي يود أن تحتفظي أنت بالتذكارات».

شاركت دوروثي ريجينالد هارفي حياته سنوات كثيرة. بالنسبة إليها، كان حباً، أما بالنسبة إليه، فكان تعبيراً عن شعور بالمودة أو الحنان. وعندما رأت كارولين الشك في عيني المرأة، ألحت عليها: «كان مولعاً بك، وعلاقته بك حميمة أكثر مما هي مع أي كان... ربما...».

تهدج صوتها وأصبح خشناً، لكنها أرغمت نفسها على القول: «ربما كان يكرهني. أنا أعلم أنه كان يفضل أن تحتفظي أنت بهذه التذكارات».

سمعت بن يشهق بصوت مسموع ثم ساد صمت ثقيل منحها القوة لأن تضيف قائلة: «وبالمقابل، يمكنك أن تخبريني لماذا... لماذا لم يكن يطيق رؤيتي. لا بد أنك فهمت شيئاً مع مرور السنين. وربما...».

وتنفست بعمق، وهي ترى عيني بن السوداوين شاخصتين عليها، شاعرة بتعاطفه الصامت: «ربما إذا عرفت السبب...».

فقالت المرأة وقد تألقت عيناها بالعطف، بينما اشتدت قبضتها على التذكارات: «نعم. كان لا يفصح عن مشاعره، ولكنه كان يحب أمك كثيراً بشهادة كل من يعرفهما. كان يعبد الأرض التي تسير عليها. تعرفين «جين بايلي» التي تزوجت في ما بعد «هيوم» وكانت تخدم حينها في هذا البيت. لقد قالت إن أباك لم يكن مسروراً عندما حملت أمك بك. لم يكن يريد أن يشاركه أحد في حبها له، حتى ولو كان ولده، كان يريدها لنفسه».

قطبت كارولين جبينها. هل كان الحب مستحوذاً على أبيها بهذا الشكل؟ ثم تذكرت الرسائل التي وجدتها في العلبة العتيقة فأدركت الحقيقة. لقد أحب أمها بقدر ما كرهها هي، ابنته الوحيدة.

دمعت عيناها وقالت بصوت لا يكاد يُسمع: «لم ماتت في طفولتي الباكرة».

لم تكن تعلم سوى هذا. لأن أباها لم يتحدث إليها قط عن أمها، عدا عن إيضاحه ظروف موتها عندما ألحت عليه بمعرفة التفاصيل. في الحقيقة، لم يكن يتحدث إليها أبداً، إلاّ ليعطيها إرشادات أو ليؤنبها.

قالت دوروثي وهي تهز رأسها: «ماتت بعد مولدك بساعة. كانت حديث المنطقة حينذاك، كانت مأساة فظيعة. ولدت أنت قبل ثلاثة أسابيع، في بداية تشرين الثاني، وهبت عاصفة ثلجية طوال الليل، مهددة بانهيارات خطيرة، ولم يستطع أبوك أن يخرج أمك من البيت، كما لم يستطع أحد أن يخرج. جئت أنت بسرعة فأخذت أمك تنزف بغزارة.

وحين وصلت طائرة الإسعاف، كان الوقت قد فات. ذُكر ذلك في التحقيق الرسمي عن أسباب الوفاة. وعندما ابتدأت أنا العمل هنا كمديرة للمنزل، رأيت كيف كان أبوك يعاملك. وتكهنت بأنه كان يكرهك لأنك عشت وزوجته ماتت. ثم كبرتِ فأصبحتِ صورة عن أمك لكنك لم تكونيها».

فقالت كارولين بصوت أجش: «ولهذا لم يكن يطيق النظر إلي. كان يلومني لموتها».

ـ كنت أشابه جداً، وأنت تعرفين هذا، لكني لم أشعر بالخوف

من إعلامه بأنه يسيء معاملتك... حتى وهو يقول لي بألا أتدخل في شؤون غيري. لم يكن الذنب ذنبك، فأنت لم تطلبي أن يتجاهلك. قلت له أكثر من مرة. وفيما بعد، ابتدأ يلين قليلاً. لكن الوقت فات حينذاك. فقد نشأت متمردة نزقة سريعة الغضب وكان الأمر محزناً للغاية».

ثم وقفت ببطء: «عليّ حقاً أن أذهب الآن. لكنني سررت بحديثنا».

ـ سأوصلك بسيارتي.

كان بن يعرض على المرأة إيصالها، لكن كارولين رأت عينيه الملتهبتين تحرقانها أنى استقرتا. عندما كانا معاً قبل تلك السنوات، كان يعلم أن علاقتها بأبيها ليست جيدة، لكن لم يكن يعرف كم كان الصدع بينهما عميقاً، لم تشأ أن تتحدث عن تعاستها في البيت، بل فقط عن المستقبل الذي كانا يخططان له معاً.

قالت له دوروثي: «لا حاجة بك لذلك فقد جئت بسيارتي».

ـ سأرافقك إلى الباب إذن.

خنقت كارولين تنهيدة فهي لا تشعر، حالياً، برغبة في عطف بن أو صحبته. كانت بحاجة إلى وقت تخلو فيه بنفسها، لكي تتفهم علاقتها بأبيها وكيف أتعساها، هما الاثنين. بكت في آخر لقاء بينهما وصرخت قائلة إنها تفضل الموت على الزواج من جيريمي وإنها لا تهتم إذا ما نفذ تهديده وطردها من البيت لأنها لم تعد تريد البقاء معه أصلاً.

دخلت الثامنة عشرة بقلب محطم لخيانة حبيبها فلم تستطع أن تستعمل معه أسلوباً منمقاً وأن تقول له بهدوء إنها لن تستطيع أبداً أن

تتزوج ثروة آل كيرتس لأنها عاجزة عن حب جيريمي. وكانت شديدة الألم فلم تضع باعتبارها كرامة والدها وهي تقول له إنها تكرهه ولطالما كرهته.

لقد فات الوقت الآن على استعادة كلماتها المرة وتخبره بأنها سامحته لعجزه عن منحها حب الأب، لأنها فهمت أخيراً سبب كرهه ذاك لها.

اهتزت كتفاها وهي تدفن رأسها بين يديها، وقد غلبها الحزن. لم تحاول أن تتمالك نفسها إلا بعد أن أحست براس فوقها.

قال وهو يوقفها على قدميها ويضمها إليه: «لا تبكي. لقد عرفت الليلة شيئاً لم تعرفيه من قبل، ومن الطبيعي أن يكدّرك. لكن أباك عاملك بشكل كريه يا كيرو. وذكراه لا تستحق منك كل هذا الحزن».

أحاط وجهها براحتيه وراح يبعد عن وجهها خصلات شعرها الأسود: «لقد استحوذ عليه هاجس حبه الكبير، وأنا أتفهمه. ولكنني ضد معاملته القاسية لطفلة بريئة. وإذا دب النفور بينكما في آخر سنوات حياته، فالذنب لا يقع عليك».

هزت رأسها بصمت وأنفاسها ترتجف فيما تشبثت أصابعها بكتفيه، وكأنها تريد أن تستمد القوة من صلابته. كان العطف والاهتمام باديين في عينيه الرائعتين، وفي الرقة المرتسمة على شفتيه الآسرتين. كانت ترتجف، وأعادتها الذكريات إلى تلك اللحظات التي لم يكن فيها حبيبها فقط ولكن أفضل أصدقائها. الصخرة التي تتمسك بها في وجه العاصفة.

انفرجت شفتاها الناعمتان بالنفي ثم تابعت بحزن وثبات: «عندما كنت صغيرة، كنت أريده أن يحبني أكثر من أي شيء آخر في العالم.

لكنني كنت أعلم أنه لم يكن يحبني. أحياناً كنت أراه ينظر إليّ وكأنه يكرهني. كنت أظن أن الذنب ذنبي وأن ثمة شيئاً فظيعاً يتعلق بي».

عندما أخذ يتمتم بهدوء مستنكراً، هزت رأسها تسكته بقولها: «كانت دوروثي على صواب في أمرين. ذات يوم حاول أن يوثق العلاقة بيننا، فأخذ يهتم بي أثناء عطلتي، أخذ يسألني عن أصدقائي، والكتب التي أحب قراءتها. لكن الوقت كان قد فات، كنت في الخامسة عشرة حينذاك، واعتدت على أن يتجاهلني ويدفعني بعيداً عنه. لم أكترث لأي من محاولاته السلمية للسلام بيننا، فرفعت رأسي شامخة، وتابعت طريقي، جاعلة إياه يعتقد أنني لا أحتاجه. هذا ما آسف عليه الآن بكل مرارة».

شعرت بجسده القريب منها يتوتر وهو يقول: «هذا الشعور طبيعي تماماً بالنسبة للظروف الحالية. وليس عليك أن تأسفي حقاً، فالشيء الوحيد الذي قد تأسفين عليه هو معاملته تلك التي جعلتك حذرة، أو غير قادرة على الارتباط بعلاقة دائمة وأنا أفهم ذلك».

لكنها فكرت بضعف، أنه لا يفهم أنها تستطيع أن ترتبط بين طوال حياتها لو أن الأمور لم تسر في هذا الاتجاه الخاطيء. حالياً، كانت مستنزفة القوى بحيث لم يعد بإمكانها أن تقوم رأيه بهذا الصدد. أراحت رأسها إلى الأمام، على صدره الصلب الرحب.

جل ما تريده الآن هو أن يلفها النوم بالنسيان، فتريح رأسها المتعب من الأسف والندم ومن الاضطراب والارتباك. هذه المشاعر التي تمزق قلبها وجسدها في حين أن عقلها يحدثها بأنه لا يستحق الثقة.

تمتم بن: «إن عواطفك مستنزفة، يا حبيبتي. ستعود وتتكلم

صباحاً في الموضوع. أما الآن فأنت بحاجة إلى النوم».

عند ذلك أومأت موافقة نابذة المنطق الذي حثها على الابتعاد عنه وعن مشاعر التعاطف والحنان التي يظهرها لها.

* * *

٨ ـ لا للزواج

قادها إلى غرفته وسريره... طوال الطريق شيء ما كان ينبض في كيانها. لِمَ أخذها إلى غرفته وليس إلى غرفتها؟ سؤال سخيف حقاً. هل يريد أن يتهز فرصة انهيارها؟...

صدرت عنها آهة اشمئزاز وهو يوقفها على قدميها.

لكنه... وضع يديه على كتفيها برقة فائقة يسندها وهي تترنح فجأة فتكاد تقع عليه لا إرادياً: «أنت لا تستطيعين الوقوف على قدميك، يا حبيبتي. إنسي أمر الاستحمام هذه الليلة، فأنت بحاجة إلى النوم».

حنان صوته جعل الدمع يتدفق من عينيها، ما جرح مشاعرها. فهي التي لم تبكِ أبداً، ذرفت الدموع في الساعات القليلة الماضية ما يكفي لتعويم بارجة حربية.

لم تكن تبكي بسبب الحقيقة التي عرفتها لتوها، ولا بسبب الذكريات المؤلمة عن لقائها الأخير بأبيها... وإنما بسبب بن. فحنانه واهتمامه بسعادتها أثناء علاقتهما القديمة جعلاها تحبه إلى هذا الحد.

ومع ذلك، لم تكن صورته تتناسب مع الطريقة التي فصل بها

يديه من ماضي بوب وابنته.

كبحت آهة حين أخذ يفلت شعرها بينما أصابعه تتخلل خصلاته الناعمة.

هل يدرك ما يفعل...؟ والتأثير الذي يحدثه فيها؟ وكيف يخفق قلبها بعنف مرسلاً شرارة في كل جزء منها؟

جازفت بإلقاء نظرة عليه من تحت أهدابها. أتراه لا يدرك مطلقاً ما تحس به.

ظنت أنها سمعت شهقته الحادة عندما تمسكت به لتحافظ على توازنها. ثم تأكدت من أنها لا بد تخيلت ذلك عندما ألقى يديه على كتفيها بكل هدوء، يديرها إليه، ثم سوى الوسائد وهو يقول بهدوء: «هيا، نامي، لا أظن أنه ينبغي أن تكوني وحدك مع تأملاتك الكئيبة الليلة. سأكون بجانبك على الأريكة إذا شعرت بحاجة إلى الكلام يا كيري».

صعدت إلى السرير وفي حلقها غصة، ثم شعرت به يبتعد وسمعت خرير الدوش، فأدارت وجهها لتدسه في الوسادة.

* * *

لم يقل كلمة عندما خرج أخيراً من الحمام. وإنما سار ببساطة، مطفئاً النور، ثم أغلق الباب بهدوء خلفه.

سمعت كارولين الآن حفيف ملابسه وهو يخلعها في الظلام، ثم شعرت به ينسل إلى الأريكة، محاذراً أن يزعجها.

ولكن وجوده على مقربة منها أمر مزعج بحد ذاته. وكانت المسافة التي تفصلها مؤلمة بالنسبة إليها.

مع ذلك كانت تلك اللحظات التي تقضيها بقربه أشبه بحلم

تخشى أن ينتهي، بسراب تخاف أن يزول، بقطعة بلور تهاب أن تتكسر.

• • •

عندما استيقظت كارولين، توقعت أن تشعر بالتعاسة. ولكن ما شعرت به كان موجة رائعة من السعادة والقناعة والرضى.

أخذت تتمطى بكسل في السرير. فقال بن بصوته العميق: «تماماً كالقطة الصغيرة».

رفعت إليه عينيها البنفسجيتين فرأته مرتدياً مئزراً قصيراً، وشعره مبلل. كان يبدو رائعاً وقد رقّت ملامح وجهه الخشنة المزهوة، كما التوى فمه بشكل مثير.

رفعت نفسها لتستند إلى الوسائد خلفها عندما وضع فنجاني القهوة على المنضدة قرب السرير، ثم جلس على حافته وهو يقول بنعومة بالغة ونظراته تجول على وجهها:

- أي رجل مستعد وبكل سرور لارتكاب جريمة ليحظى بالجمال الكامل في غرفته.

كانت ابتسامته جذابة بحيث حبست أنفاسها ولم تستطع أن تتنفس عندما أحنى رأسه يعانقها بحرارة أذابتها.

رفعت يديها تمسك برأسه، عابثة بخصلات شعره الأسود الكث. ثم أمسك بيديها وعيناه تلمعان بمكر تحت أهدابه الكثيفة: «لدي عرض عمل أريد أن أقترحه عليك».

أخذت نفساً عميقاً بينما التوى قلبها بحدة، عرض عمل وليس زواج. الحمد لله. فهي لا تريد أبداً أن تفكر في عرض الزواج.

لم تكن تريد أن تفكر في شيء على الإطلاق فحياتها مركزة الآن في هذه اللحظات القليلة الغالية، على هذا الرجل وحبها له الذي ازهر في حياتها.

- أريد أن نجعل من هذا اليوم عطلة. فلا نتحدث أو نفكر في أي شيء عدانا نحن الاثنين، فلا نذكر الماضي ولا المستقبل.

رأت في عينيه التشكك فابتسمت له لتطمئنه: «إنها فكرة ممتازة».

في الواقع، ما من فكرة أجمل. . . يوم ساحر آخر لا يتدخل فيه الواقع ليشوّه جماله.

عادت الثقة الماكرة إلى عينيه مع ابتسامة زينت فمه الرائع وهو يضع في يدها فنجان القهوة:

- إذن. . . القهوة أولاً، ثم الدوش، هيا أيتها الكسولة.

• • •

حضّر لها بن الحمام وانتظرها حتى انتهت وكأنه لا يستطيع الابتعاد عنها ولو خطوات. وعندما خرجت، أخذ يتأملها، فرأته بعينين حالمتين، مضيفة ذكرى جديدة إلى ذكرياتها عنه.

لكنه رأى كآبة مفاجئة في عينيها، فمدّ يده يلامس خدها: «اذهبي وارتدي ملابسك، وسأحضر الفطور. هل يكفي الشاي والخبز المحمص مع الزبدة، أم أسلق بيضاً؟».

فقالت وهي تبتلع غصة في حلقها: «فليكن خبزاً محمصاً فقط».

هل ما يحرق عينيها هو البخار، أم هي الدموع؟ إنها تشعر بأنها على وشك البكاء مرة أخرى. ولكن، ألم يجعلا هذا النهار فترة

مسروقة من الفردوس؟ لا مجال إذن للنظر إلى الخلف، أو إلى الأمام.

تناولت منشفة أخرى لفتها حول رأسها. وحين قالت له إن الشاي والخبز المحمص يكفي، كانت تبدو مشوشة تماماً.

خرج راضياً من الغرفة، ثم لحقته بعد عشر دقائق. مرت في طريقها بالمكان الذي كانت فيه يوماً مكواة الياقات المصنوعة من خشب الماهوغني، فشعرت بوخز ضميرها. عليها أن تتصل بالمكتب، لتخبرهم بعودتها في الصباح. سيتساءلون عن سبب تأخرها بالنظر إلى العمل الذي تقوم به هنا.

لكنها أزاحت الفكرة من رأسها. ستتصل بهم في الصباح الباكر قبل أن تغادر المنزل. فاليوم هو ملكهما، هي وبن. أكثير عليها أن تستمتع بيوم واحد في حياتها؟

ارتدت ملابس حريرية ثم راحت تمشط شعرها المبلل. لم تكن تعلم ما هي خطة بن، ولكن لم يكن يوجد سواهما. أنهى البناؤون عملهم صباح أمس، وهم حالياً في ملعب الغولف أي في الناحية الأخرى من المزرعة.

خفق قلبها، وعاودتها التوقعات المثيرة مرة أخرى، تماماً كالأيام الماضية.

خنقت هذه الفكرة، ثم تناولت البنطلون القديم الباهت الذي أعارتها إياه ليندا. كان واسعاً جداً وقصيراً، لكنها شدته على خصرها بحزام جلدي، ثم ارتدت فوقه بلوزة قصيرة من الكريب الأزرق الباهت، ودست قدميها في خف وتركت شعرها أشبه بغمامة تنسدل على كتفيها.

لم تكن تشبه سيدة الأعمال الأنيقة المتحفظة التي جاءت إلى هنا منذ عدة أيام.

تملكتها موجة من الارتياح وهي تنظر إلى مظهرها الفوضوي في المرآة، ما جعلها تضحك. بدا عليها الاسترخاء والارتياح اللذين لم تعرفهما منذ سنوات. ثم تركت الغرفة دون أن تضع أياً من الزينة على وجهها ونزلت إلى المطبخ.

* * *

كان بن قد سلق بيضاً، أما رائحة الخبز المحمص والقهوة الشهية فكانت تفوح من المطبخ عندما دخلت كارولين. كانت الشمس تغمر الطاولة التي وضع عليها عسلاً وعصير برتقال أيضاً.

ـ لا أتذكر أنني تناولت قط مثل هذا الفطور من قبل.

اعترفت كارولين وهي تتناول من يده فنجان القهوة الثاني بعد أن وضعا الصحون المستعملة في آلة غسل الصحون.

قال باسماً: «ربما علينا أن نتمشى لنهضم ما أكلناه».

ـ فكرة حسنة.

كانت أشعة الشمس تتألق في شعره، فخفق قلبها. آلمتها روعة منظره. وذاب قلبها عندما جاء ليقف خلفها، يحيط خصرها بيديه.

أمال رأسه نحو رأسها: «ثم نتوجه إلى الغابة إلا إذا كنت تفضلين نوعاً آخر من الرياضة».

ـ بل أفضل المشي في البداية.

قالت ذلك وقد بهتت ابتسامتها. كان لقاؤهما دوماً في الغابة، حيث دفنا سرهما الخفي وعزلتهما. لذا شعرت بثقل في قلبها، لم

تكن تريد ما يوقظ الذكريات. اليوم هو كل ما بقي لهما، ويمكنها أن تجعل منه ذكرى سعيدة إذا لم تتذكر الماضي. ولهذا لن تفعل ذلك.

إنهما الآن شخصان مختلفان، وكل ما عليها أن تقوم به هو أن تتظاهر، اليوم فقط، بأنهما تعارفا للتو ومن ثم وقعا في الغرام.

غداً، ستعود إلى حياتها الطبيعية، الحياة التي تعرفها ويمكنها الاعتماد عليها.

أمسك بيدها وهو يغمز لها بعينه بمكر: «هذا حسن، أنا جاهز لما بعد تلك (البداية) مهما كانت. دعينا ننهي الآن تلك (البداية) حسب قولك».

أمسك بيدها وأخذا يتنزهان ببطء تحت المرائش الخضراء، سالكين الطرق الوعرة حيث لم يكن يتناهى إلى مسامعها سوى وقع أقدامهما على العشب، وتغريد الطيور وخرير مياه الجدول.

رأته كارولين مكاناً شاعرياً يبعث السكينة في النفس، لكنه لم يكن كذلك بالنسبة إليها. كانت كل خطوة تعيد إليها ذكريات ذلك الصيف البعيد عندما كانت تعتقد أنها قابلت نصفها الآخر، وكانت تأتمنه على حياتها. كيف يمكنها أن تحرر نفسها من خيانته القاسية؟

عندما وصلا إلى ضفاف الجدول قال: «أريد أن أريك شيئاً. أتتذكرين كوخ أمي المنهار؟».

كان غافلاً عن مزاجها الكئيب وأسرع أمامها، يبعد بيديه أغصان الأشجار، وابتسامته الصبيانية تكسو وجهه.

لم يعد أمامها من خيار سوى اللحاق به وقد غاص قلبها وهي تتذكر ذلك اليوم المخيف، عندما دفع له أبوها مبلغاً ليرحل بعيداً. كما أكدت لها ماغي بوب أنه والد طفلتها، وأنه لم يكترث لذلك بل

رحل تاركاً المسؤولية ملقاة عليها. ولهذا كتبت تلك الرسالة، في حال لم تجده.

أفرغت في تلك الرسالة كل ما تشعر به من مرارة وألم.

فتحت لها الباب أمه بملامحها الصارمة: «إنه ليس هنا».

فناولتها كارولين الرسالة المقفلة: «أعطيه إذن هذه عندما ترينه مرة أخرى».

لقد تغير الكوخ الآن. لم يكن يصلح للسكن، وقد امتلأت الحديقة الفسيحة بما كانت السيدة دكستر تستنبته للبيع. أصبح المبنى الحجري الآن متيناً، وقد رممت السقوف التي كانت تسرب الماء.

استدار بن يحيط خصرها بذراعه ليشدها: «حسناً، ما رأيك بذلك؟».

ابتعدت كارولين عنه وقد بدا الجد على وجهها، وهي تتذكر هذا اليوم المسروق من الماضي. ولكي تتظاهر بأنهما لا يتشاركان الماضي نفسه، سألت: «هل ما زالت أمك تعيش هنا؟».

لم يبدُ على الكوخ أنه مسكون، وأصبحت حديقة الخضار حقلاً ترتفع فيه الأعشاب الطفيلية. لذا لم تكن تظنها تسكن فيه. تنهدت. لقد جاهدت كثيراً لتبعد أفكارها عن خيانته الماضية، اليوم فقط. لكن وجودها في هذا المكان جعل ذلك مستحيلاً. وتابعت تقول: «إنها لم تحبني قط».

فقال بمرح وهو يخرج مفتاح الباب من جيبه: «كانت تخاف منك. كانت تعرف شعوري نحوك، وكانت تقول لي دوماً إن الأمر سينتهي يوماً ما، بالدموع».

فتح الباب المصنوع من خشب السنديان وتابع: «كانت دوماً

تقول إن السيدة الصغيرة مالكة البيت الكبير لا يمكن أبداً أن تستقر مع شاب عادي سيء السمعة!».

واقترب منها فشعرت بشيء يذوي في داخلها عندما لامس خدها بإصبعه وهو يقول برقة: «أنت لم تتركيني بسبب طبقتك الاجتماعية يا كيرو، ولكن تربيتك جعلتك عاجزة عن الالتزام بعلاقة طويلة. أنا أتهم أنك كنت صغيرة جداً».

كان هو أيضاً صغيراً حينذاك. وكان سيتركها عاجلاً أم آجلاً كما سبق وترك ماغي بوب وطفلتهما. وعاجلاً كان أبوها سيطلب منه رد ذلك المبلغ من المال ما لم يف بعهده بالنسبة إلى الصفقة بينهما. ومع ذلك هو يتحدث وكأنها هي الملامة على ما حدث.

أمسك بن بمرفقها يحثها على تجاوز العتبة، وعندما أحس بمقاومتها قال بمرح: «جواباً على سؤالك، تعيش أمي الآن مع أختها «جين» في «دربيشاير» في مزرعة الأسرة. بيعت الأرض عندما توفي والدهما وهما الآن تعيشان معاً في البيت الريفي منذ حوالى خمس سنوات».

بلغا غرفة الجلوس الرئيسية التي بدت أوسع وأكثر إشراقاً مما كانت عليه في المناسبة الوحيدة التي دخلت فيها الكوخ. لا بد أن تأملاتها بدت في عينيها لأن بن قال لها: «عندما كنت وأمي نعيش هنا، كانت هذه الغرفة مقسومة بحاجز خشبي. وكانت تنام خلفه بينما كانت غرفتي في الطابق العلوي حيث يتسرب الماء من السقف ويغطي الأرض خشب مهترىء».

وهكذا أصبح الضوء يتسرب إلى الداخل من نافذتين، كما أن مساحة الغرفة ازدادت كثيراً. وأزيل الموقد الصدىء القديم، كاشفاً

عن ركن فسيح قامت فيه مدفأة تتوهج فيها الأخشاب في الشتاء. وأزيلت طبقات الطلاء الأسود القديم عن السقف الخشبي فاستعاد لونه الطبيعي الدافىء.

- كان المسكن سيئاً للغاية عندما كنا نعيش فيه. ولهذا السبب كان الإيجار منخفضاً، ولم يكن بإمكاننا استئجار منزل أفضل.

ثم قادها إلى أريكة قائمة قرب النافذة فذهبت معه مكرهة مكتئبة لدرجة أنها لم ترغب بالنقاش: «لا بد أنك كنت تربتها في الجوار بعد أن جئنا لنعيش هنا، ولكنك لم تتعرفي إليها قط. كان يجدر بك التعرف إليها، لأنكما ستنسجمان معاً».

كانا جالسين عندما أمسك يدها المستسلمة. لكن كارولين لم تشعر بشيء إلا بحذر في أعصابها.

- كان الناس يظنونها عدائية، لكنه كان مجرد دفاع عن النفس. كان أبي يعمل في سيرك متنقل. وعندما وصل إلى بلدتها تسللت هي وأختها إليه، وهناك تعرفت إلى أبي وبعد فترة تزوجا ولكن سرعان ما رحل تاركاً إياها حاملاً.

وألقى عليها نظرة جانبية ساخرة: «كفّت عن انتظار الرجل الذي أنجبني إلى الدنيا. وهكذا تركت بيت أبويها وربتني وعملت ما تيسر لها. لقد استقرينا فترة في مانشستر... لمدة ثماني سنوات على ما أظن. ثم انتقلنا جنوباً لينتهي بنا المطاف هنا. لقد عاشت حياة شاقة ولكنها لم تدع ذلك يقهرها».

وفكرت كارولين صامتة في أن حياتهما كانت صعبة للغاية. لقد تزوج والد بن شابة صغيرة ثم تركها ورحل، دون أن يغير رأيه. وما هذا الشبل إلا من ذاك الأسد، فقد هجر بن امرأة راغبة.

تململت على الأريكة بضيق وشعرت باستنزاف كامل لطاقتها وبشيء من الغثيان.

أدركت حماقتها وهي تظن أن بإمكانهما أن يمضيا معاً ولو يوماً واحداً بسعادة.

اشتدت أصابعه عليها وهو يهبّ واقفاً، وشعّت ابتسامته حماسة وهو يدعوها: «تعالي وانظري إلى البقية. لقد أصلحته وأوسعته من أجل أمي، لكنها أخبرتني بأنها استقرت في الشمال مع جين. إذا أحببت، يمكنني أن أتخلى عن جناحي في المنزل... لأفسح المجال لمزيد من الأولاد... ويمكننا أن نستعمل الكوخ عندما... أو...».

واتسعت ابتسامته: «إذا كنت تفضلين الأمومة وحياة الريف على الوظيفة في لندن، يمكننا أن نجعله بيتنا الدائم وأبقي على شقتي في لندن عندما ترغب في الضوضاء. الأمر كله عائد إليك، يا حبيبتي».

حبست كارولين أنفاسها، فقد كانت جاذبيته لا تقاوم.

هزت كتفيها واكتسحتها موجة باردة من التعاسة، كان واضحاً أن قبولها الزواج منه، أصبح أمراً مسلماً به لديه.

كان الأمر مغرياً، أكثر إغراء مما تريد أن تعترف به. ولكن كيف يمكنها أن تثق به؟ لقد سبق ووثقت به في الماضي، فأين أصبحت الآن؟ ستكون حمقاء لو وقعت في الفخ مرتين.

ـ حبيبتي؟

كان السؤال في صوته، في طريقة تفحصه لها وكأنه ينفذ إلى أعماق روحها.

ابتعدت عنه شابكةً ذراعيها على صدرها، وقالت له بجد: «لا

وأنت أيضاً لقد أحضرتني إلى هنا قائلاً إننا لا نريد ذكر الماضي أو المستقبل، مع أننا لا نستطيع الوفاء بالعهد».

قال بصوت جاد: «أدرك ما قلت».

وضاقت عيناه، وهو يعود فيقترب منها وأخذ يمسّد بإصبعه تلك العقدة التي ظهرت على جبينها: «كنت مخطئاً، لأننا لا نستطيع أن ننسى كيف كنا معاً، أكثر مما يمكننا أن نتجاهل المستقبل».

وانحدرت يده إلى خدها: «أما اليوم، وفي هذا المكان، فنحن الجسر الذي يصل بين الاثنين».

أخذت نفساً حاداً، وتلاقت عيناهما وفكرت بأن لا مستقبل لهما: «لقد فكرت في الأمر ملياً...».

لم تستطع أن تكمل، ولكن تحت ضغط عينيه اللتين تتفحصانها، عادت تقول: «لا يمكنني الموافقة على عرض الزواج بابن».

• • •

٩ ـ القلب يخدع... أحياناً

نظر بن إليها طويلاً وقد تحجرت ملامحه. ثم سألها بلهجة قاسية: «ولماذا بقيت إذن الليلة الماضية؟».

ثم توترت شفتاه، وهو يضيف: «هل اعتدت إمضاء السهرات برفقة أحدهم وأنا في متناول اليد؟».

ـ لا!

جاء إنكار كارولين الحاد مليئاً بالألم، فهي لا تستطيع أن تدعه يظن ذلك بها، لكنها لا تستطيع أن تعترف بأنها تحبه. لأنها لو فعلت، فلن تستطيع احتمال الضغط الذي سيمارسه عليها لكي تقبل بالزواج منه.

لقد حان الوقت لقول الحقيقة، ولتكون صادقة قدر الإمكان دون أن تكشف مشاعرها نحوه. ارتجفت بشكل لا إرادي، لكن نبرتها كان حازماً وهي تقول: «عندما نكون معاً، لا أهتم لأي شيء آخر، وكأن العالم يتبخر من حولي. لطالما كان الأمر هكذا بالنسبة إلي وأنا أعترف بهذا تماماً».

أدارت له ظهرها لأنها لم تستطع احتمال رؤية عينيه اللتين لطالما

كشفتا عن اهتمامه ومشاعره المحمومة، ولكنهما استحالتا قطعتين من الفحم الأسود البارد.

كانت تعلم أن الآتي سيكون أعظم حين تفسر موقفها. فما من رجل يجمع ثروة، ويرأس شركة دولية، واسماً محترماً، يحب أن يذكره أحد بماضيه.

خفق قلبها بألم فحولت عينيها عنه وراحت تتأمل الحديقة المهملة. يمكن لهذه الحديقة أن تتحول إلى بقعة جميلة. ولكنها، طبعاً، لن تكون من سيقوم بهذا التحول.

رطبتْ شفتيها الجافتين، وحاولت أن تخفف من تشنُّج كتفيها. لكنه لم يتبدد، وأرغمت نفسها على القول: «بعد الطريقة التي خدعتنا بها جميعاً، لم أعد أستطيع أن أثق بك حقاً. وبما أنا...».

وقطعت كلامها رافضةً أن تقول كلمة (أحبك)، واستعاضت عنها بكلمات: «أجدك جذاباً، لكنني لن أستطيع التأكد من أنك لن تعود تفعل الشيء نفسه».

ـ آه، إذن فقد عدنا إلى كلمة (الخداع) تلك؟

سمعته يقترب منها، فتساءلت عما إذا كان سيمسكها، لكنه لم يفعل.

قال بحزم: «الليلة الماضية كنت على وشك أن تخبريني بما تقصدينه، لكن الأحداث قاطعتنا كما أتذكر. تكلمي إذن يا كيرو».

فقالت بتعب: «اسمع، أنا أعلم أن ذلك حصل منذ وقت طويل. كنت صغيراً، وعنيفاً، وقد تكون الآن أكبر باثنتي عشرة سنة، ناجحاً ثرياً للغاية ومحترماً، لكن الناس لا يتغيرون، خصوصاً في الجوهر».

ـ أدخلي صلب الموضوع.

قال لها هذا وقد بدا الحذر في صوته. فتنفست بعمق، وهي تتساءل عما يجعلها عنيفة إلى هذا الحد، ولماذا يجب أن تكون مدققة بهذا الشكل؟ ألا يمكنها أن تفتح صفحة جديدة وتأخذ من الحياة ما تستطيع من السعادة؟

لكن الثقة مسألة أكثر أهمية من أن توضع جانباً.

ابتلعت ريقها وهزت كتفيها. ستبدأ بالأمر السهل فقالت: «دفع لك أبي مبلغاً مقابل رحيلك والبقاء بعيداً، وكان سلوكك شيئاً إ أظهر قيمتي عندك. لكنك أدرت ظهرك للصفقة حسب اعترافك. وعدت لتسألني إن كنت حقاً سأتزوج جيريمي كيرس. أظن أ كرامتك لم تسمح لك أن أكون قد استغليتك كما استغليتني أنت. نقضت تلك الاتفاقية التجارية التي عقدتها مع أبي ما يدلّ على نقص كامل في الكرامة لديك».

مضت لحظات صمت مشحونة ثم التفت بسرعة تواجهه وهو يقول بحدة: «لقد عرض عليّ أبوك مالاً لكنني لم آخذه. بل أخبرته ما عليه أن يفعله به. لم أنكث بالعهد لأنه لم تحصل صفقة بيننا. أما إ أخبرك بشيء غير هذا، فقد كذب عليك، تماماً كما فعل عندما أخبرني بأنك ستعلنين خطبتك بعد شهرين».

أغمضت أهدابها فقد آلمها للغاية هذا الاتهام الضمني الذي كا يلمع في عينيه.

وسألها ببرودة: «هل ثقتك بي متدنية إلى هذا الحد؟ لقد س وأخبرتك باضطراري للسفر إلى لندن ذلك اليوم، وكيف أنني أستطيع أن أنتظر لأعود إليك. أما كان عليك أن تفعلي الشيء نفسه فتنتظري لتسمعي ما أقوله؟ لِمَ صدّقت أباك وكتبت إليّ لإنهـ

علاقتنا؟».

أعطاه كلامه الحق في الغضب الذي أبداه، كما أخذت تفكر بتعاسة.

لو أن قضية الصفقة المزعومة مع أبيها هي كل المسألة لاختلف الأمر تماماً. ولانتظرت عودته لتسأله عن صحة كلام أبيها.

لكنه لم يكن الشيء الوحيد.

ـ هناك المزيد. أعرف ماذا فعلت بماغي بوب وابنتك.

صعب عليها أن تنطق بهذه الكلمات. لأن ذكرى تلك الصدمة التي حطمتها ما زالت تؤلمها وتفزعها.

أخذت نفساً عميقاً ممزقاً ثم قالت: «عندما أخبرني أبي، لم أشأ أن أصدقه. لكن ماغي أثبتت زعمه. كانت حاملاً ورفضت أن تتحمل أي مسؤولية. غسلت يديك منهما ولم تشأ أن تعلم. ثم حوّلت حماسك إلى ضحيتك الثانية، أي أنا».

رأت الشحوب على وجهه فالحقيقة تؤلم حقاً. من الغريب أنها تهيبت للمسه، لتصالح معه. افترضت أن الحب هو المسؤول عن هذا الدافع الذي تملكها للتخفيف عنه.

واعترفت وقد تملكتها رجفة، بأن الحب يصفح عن كل شيء.

مدت إليه يدها بشكل غريزي، لكنه هز رأسه فجأة ثم سار إلى الباب وهو يقول بصوت متوتر: «أنا لم ألمس ماغي بوب وأنكر أبوتي لابنتها. صدقي أو لا تصدقي».

واستدار يواجهها رعيناه السوداوان تخترقان عينيها: «في النهاية، يتعلق الأمر بالثقة، أليس كذلك؟».

• • •

ساروا عائدين بين الأشجار، وساد بينهما صمت تام جعل فم كارولين يجف.

أرادت أن تقول له إنها لا تستطيع أن تتغاضى عما فعل، لكنها تفهم ذلك. فقد كان صغيراً طائشاً وكان أبوه مثالاً سيئاً له.

كانت تريد أن تتوسل إليه كي لا يكذب بهذا الشأن، خصوصاً عليها هي، أرادت أن تقترح عليه التكفير عن ذنبه بالاعتراف بابنته، والمساعدة في تربيتها.

ربما، بهذه الطريقة، يمكنهما أن يضعا الماضي خلفهما ويمضيا قدماً...

جعلتها سرعته في السير تلهث فقالت بصوت حاد: «بن... اسمعني... أرجوك لا تكذب عليّ...».

لكنه أسكتها بحركة عنيفة من يده. ونظر في عينيها بازدراء: «أنا لم أكذب عليك يوماً. وأقترح عليك أن تستمعي إلى قلبك بدلاً من اتهامي بهذه البرودة. وأثناء ذلك، يمكنك أن تنهي عملك هنا».

ومنحها ابتسامة مصطنعة: «فقد لا يكون لديك الوقت أو الرغبة في ذلك».

حملقت فيه بعينين دامعتين، وقد لسعها استبداده وازدراؤه.

استدار بن مبتعداً بخطوات واسعة، وأدركت أن كبرياءه مجروحة.

- انتظر!

صرخت بعد ما وجدت صوتها، وقد بدا الاستبداد في صوتها كما كان صوته تماماً. لكنه تجاهلها وهو يوسع الخطى إلى سيارته واستقلها لينطلق مبتعداً عنها.

صرفت كارولين بأسنانها وعادت إلى المنزل بتثاقل. إنه رجل

صعب. هل منعته كبرياؤه من الاقرار بخطئه؟ هل كان مضطراً إلى الكذب؟

أم أنه يعتبرها حمقاء كلياً؟

لأن مافي بوب، لا يمكن أن تكون كاذبة. فالفتاة تكبر كارولين بعدة أشهر فقط، وليس لديها أي سبب يجعلها تكذب بالنسبة لهوية والد طفلتها.

هذا اليوم الرائع الذي خططت... بل خططا له، قد استحال كابوساً مزعجاً.

أخذت تعزي نفسها أن غضبها قد يخفف من الألم الذي تشعر به في قلبها، وأنها قد تكون خسرت يوماً من النعيم الذي تعيش فيه، ولكنه نعيم مؤقت.

عندما كانت تجتاز الردهة، رن جرس الهاتف.

عبست وقررت تجاهله لكنها سرعان ما غيرت رأيها. قد يكون المتصل أحد مقاولي البناء الذين استخدمهم بن لترميم المزرعة. وهي لن تتشبه به في إهمال العمل اليومي المعتاد، فتنفجر في نوبة غضب أو استياء!

أجابت من الغرفة التي كانت سابقاً مكتباً لأبيها، الأمر الذي شتت مشاعرها فلم تستطع تحديد هوية المتكلم إلا بعد دقيقة:

- ميكيل!

- هو نفسه. إسمعي يا كارولين. أنا هنا في المنطقة... إذا انهيت عملك، وكنت متعبة كما يبدو من صوتك، يمكنك أن تعودي معي إلى لندن. ما قولك؟

لم يعد لديها عذر للبقاء هنا، مع أن مجرد التفكير في ترك بن،

كان أشبه بخنجر يطعن قلبها.

ولكنه شرّ لا بد منه.

- إذاً؟ ما قولك؟ هل ما زلت على الخط يا كارولين؟

كرر ابن ربيبها سؤاله، فأخذت نفساً عميقاً: «آسفة، كنت أفكر بأنني انتهيت من عملي هنا».

- عظيم، سأكون عندك حوالى الساعة الرابعة. يمكننا أن نتوقف في الطريق لنأكل شيئاً...

انخفض صوته: «ثم نتابع الحديث الذي دار بيننا قبل أن تضطري إلى السفر... إلى اللقاء يا حبيبتي!».

أجفلت لهذه الكلمة التي استعملها بن بشكل بالغ التأثير خلال الساعات الأربع وعشرين الماضية، وبدا وكأنه كان يعنيها حقاً. وضعت السماعة بيد مرتجفة فهي لا تريد أن يدعوها أي رجل حبيبته. هي لا تريد أي رجل آخر، وانتهى الأمر.

ثم ما هو الحديث الذي كان ميكيل يرمي إليه؟ إنه يتعلق بتعميق معرفة كل منهما بالآخر، كما تذكرت وقد تفجر حزنها. أخذت تفكر في الصداقة التي تربطها بميكيل وبنبرغ وما إذا كانت تستحق أن تمضي فيها قدماً. وعيست. لقد فكرت بتجرد تام في الاحتمالات المرجحة ما بين البقاء عزباء أو إنشاء أسرة.

ما من عيب في ميكيل. فهو ذكي ووسيم وهما متشابهان في أمور كثيرة. ولكنه، ككثيره من الرجال الذي عرفتهم في السنوات الأخيرة، لم يكن بن.

وضعت أصابعها على صدغيها، وأحنت رأسها. لقد أفسد بن مشاعرها، منذ البداية، نحو أي رجل آخر. كانت أنفاسها تحترق.

ألم يعترف هو بأنه يعاني مما يحدث لها؟ اعترف بأنه أعادها إلى منزل لانغلي هايز، بنية التخلص نهائياً من الذكريات التي تعذبه، ولإثبات أن ما كان بينهما كان أمراً عادياً؟

ثم ألم يعترف بصراحة أن الأمر لم ينجح معه؟ وأزاحت شعرها المشعث عن وجهها... (أتجرح أن تستمعي إلى قلبك)؟

كما استمع هو إلى قلبه عندما وجد عذراً لتلك الرسالة البغيضة التي تركتها له مع أمه قبل ساعات فقط من مغادرتها هذا المنزل نهائياً. برر الرسالة بأن الذعر تملك فتاة في السابعة عشرة إزاء الارتباط الجاد. لقد كان مخطئاً، طبعاً، ولكن هل كان يحاول أن يلتمس لها أعذاراً لأنه كان يحبها فاستمع إلى نداء قلبه؟

هل من الممكن أنها أساءت الحكم عليه؟

شعور عذب، دافىء ابتدأ يزهر في قلبها. ربما لم يذهب بعيداً في نوبة الانفعال والغضب تلك لمجرد الرغبة في الابتعاد عنها. وإنما لأنه بحاجة إلى وقت ينفرد فيه بنفسه ليفكر في إقناعها بأنه كان يخبرها بالحقيقة.

خرجت كارولين من الغرفة وأغلقت الباب خلفها بهدوء، وقد اتخذت قرارها نهائياً.

إنها مستعدة لأن تصدق أن أباها كذب بقوله إنه دفع مالاً لبن. فهو سيقوم بأي شيء في سبيل تحطيم علاقتها به قبل أن يسمع بها جيريمي. وكان يريد أن يزوجها من شخص ثري.

وبقيت مسألة مافي بورب...

عندما خرجت من البيت، لاحظت كارولين أن السماء قد تلبدت بالغيوم فحجبت الشمس، والجوّ المتقلب يذكر بالشتاء أكثر منه

بالربيع. وارتجفت، لكنها ابتدأت تمشي بسرعة إلى القرية.

ما زال أمامها متسع من الوقت، قبل أن يأتي ميكيل. ستذهب إلى مافي لتعرف منها الحقيقة، ما لم تكن قد غادرت المنطقة.

لكن الأمر مستبعد. لقد احتفظ أبوها الأرمل بحانة في القرية، فأخذت مافي تعمل فيها منذ تركت المدرسة لدى بلوغها السادسة عشرة، واستمرت تعيش فيها، وهو شيء مثالي بالنسبة إلى أم تربي طفلة دون أب، وتفتقر لأي مؤهلات.

رغم الهواء القارس الذي كان يهب بقوة كان قلب كارولين يغني فاشتاقت إليه. لم يكذب عليها بن... وهو ليس قاسياً نظراً لما فعله بمنزل لانغلي هايز، ولم يكن قاسياً عندما تعرفت إليه ووقعت في حبه.

كان بن يريد أن يتزوجها حينذاك، وهو يريد أن يتزوجها الآن! ما كانا ليضيعا اثني عشرة سنة لو أنها كانت أنضج حينذاك، ورفضت أن تصدق تلك الأكاذيب قبل أن تتحدث إليه، مبقية على ثقتها به بالرغم من إصرار أبيها وأكاذيبه.

أقسمت على إصلاح الأمور، فأسرعت بخطواتها تحت صف الأشجار لحماية نفسها من رذاذ المطر. بقي الشيء الغامض الوحيد وهو ما الذي جعل مافي تكذب. هل بدافع الحقد؟ أم لأن ذلك الفتى الجذاب بن دكستر لم يهتم بها بينما هي كانت تتمنى ذلك؟

كانت كارولين تعرف سيرته السيئة، ومن لم يكن يعرف؟

ذات يوم وبينما كانت تقضي العطلة المدرسية، سمعت مجموعة من فتيات القرية يتحدثن عن بن دكستر الجذاب. كن يتضاحكن ويتفاخرن عندما يمرّ أمامهن على دراجته النارية الهادرة التي اعتاد

ركوبها. بعضهن يتباهين بأنهن كن يركبن معه، مشيرات، ضمناً، إلى أكثر من ذلك.

أترى كانت مافي تغار لأنها لم تكن واحدة من المحظوظات فقررت أن تنتقم منه فأخبرت الجميع بأنها وصلت معه إلى ما تريد؟

مهما يكن، تلك التأملات لم تكن تنفعها، عليها أن تصل إلى الحقيقة، أن تكتشف ما الدافع من تلك الكذبة التي خلّفت كل ذلك الدمار، وكانت تعرف أنها ستنتظر فترة أطول لكي تدخل الفردوس.

عندما وصلت إلى وسط القرية، أحنت رأسها وهي تندفع إلى باب المتجر حيث يمكنها الاحتماء من المطر.

ولكنّ طرْقاً على زجاج نافذة جعلها تقف مكانها.

كانت «دوروثي سكيت» تومىء لها، فركضت كارولين إلى داخل المنزل الصغير.

قالت دوروثي وهي تبرز من الباب: «رباه، أنت مبللة تماماً. رأيتك قادمة من الطريق. يمكنك أن تري كل شيء من نافذتي الأمامية... فقلت لنفسي، مسكينة الآنسة كارولين، سيبللها المطر تماماً! والآن تعالي وجففي نفسك قرب النار وسأحضر لك منشفة لشعرك. وما رأيك بفنجان شاي؟ أنا بحاجة إلى ذلك»

دخلت كارولين، شاكرة، إلى غرفة مريحة مكتظة بالأثاث، ثم أخذت تنشف شعرها أمام النار المتقدة في مدفأة صغيرة بينما ذهبت دوروثي لتعد الشاي. وعندما عادت حاملة الفناجين قالت لها كارولين: «منزلك مريح للغاية. هل أنت سعيدة هنا؟»

لا بد أن موت أبيها قد أصاب دوروثي في الصميم. فقد فقدت الرجل الذي شكّل محور حياتها لسنوات طويلة، كما فقدت بيتها

ومعيشتها. وشعرت كارولين نحوها بشيء من المسؤولية. إذا كانت كارولين تجد صعوبة في العيش، لأن ميراث أبيها لم يسمح بذلك بعد دفع ديون أبيها، لا بد إذن من القيام بشيء في هذا الشأن.

- آه، نعم.

سكبت دوروثي فنجانين وناولت أحدهما لكارولين، التي وضعت المشفة جانباً وأخذت تراقب البخار وهو يتصاعد من فنجانها: «أنا أفتقد أباك. طبعاً أفتقده، وظننت أنني سأكون وحيدة بعده، لكنني لست كذلك في الحقيقة. هنالك دوماً من أتحدث معه. وكما قلت، يمكنني أن أرى كل المارة من خلال نافذتي».

ثم تأخذ بالحديث عنهم، سواء أكان ذلك يشكل ضرراً أم لا، كما أخذت كارولين تفكر ساخرة وهي تقول بلطف: «أنا أعلم أنك لم تبلغي سن التقاعد، يا دوروثي. فكيف تدبرين أمرك إذن؟ لا تخافي، أخبريني، فقد أستطيع مساعدتك».

- ليباركك الله، فأنا أتدبر أمري جيداً.

وقاصت المرأة في كرسيها وهي تبتسم: «عندما استلمت شركة السيد دكستر البيت، شرح لي سبب ضرورة رحيلي من المنزل، خصوصاً بصفة مديرة منزل بدوام كامل. على كل حال، كان بحاجة إلى امرأة شابة تستطيع التعامل مع كل أولئك الصغار المفعمين بالحيوية والنشاط. ولكن حالما تصل المجموعة الأولى، سيكون عليّ أن أذهب إلى هناك عدة ساعات يومياً فقط للمساعدة، فأتعرف عليهم، وأكون بالنسبة إليهم (جدة) مؤقتة، كما قال، وإلى حين وصولهم، هو يدفع لي مبلغاً جيداً كمقدم للأتعاب. إنه رجل طيب، حقاً».

وافقتها كارولين، بصمت، على ذلك، شاعرة بغصة في حلقها. إنه أفضل الرجال، فلماذا استغرق هذا الاعتراف منها هذا الوقت الطويل؟ كانت مصرة على التعلّق بفكرة مغلوطة عن الماضي ما أعماها عن الحقيقة.

لم يستطع أبوها أن يحبها، وكذلك هي. في عقلها الباطن كانت تعتقد أن أباها لن يستطيع أن يحب أياً كان لأنه لم يحبها.

ألهذا السبب يسهل تصديق الأكاذيب عن بن لأنها مقتنعة، في عقلها الباطن، بأنه لم يحبها قط، وإنما كانت نزوة بالنسبة إليه؟

وضعت فنجانها من يدها ثم راحت تفرك جبينها. لن تشرع في تحليل نفسيتها. حتى الآن، كانت أفكارها تجري في مسارٍ مستقيم. لن تنظر إلى الوراء، لن تخطط لحياتها ومهنتها، ولن ترى الأشياء بالأبيض والأسود، فلا ظلال بينهما بعد اليوم.

تنهدَتْ، ثم ابتسمت لدوروثي قبل أن تنظر إلى النافذة. لن تذهب للبحث عن ماضي الآن، فلتدعها تحتفظ بسرها. لا فائدة من التراشق بالاتهامات. على كارولين أن تتطلع إلى المستقبل، وإمكانية المشاركة فيه مع بن لأنها تعلم الآن أنه لم يكن يكذب حين أعلن أنه لم يلمس ماغي بوب.

- أظن المطر توقف.

وسارت لكي تتأكد، فوقفت دوروثي بجانبها عند النافذة: «نعم، الحق معك. ولكنك لست على عجلة، أليس كذلك؟».

- بل أنا كذلك، مع الأسف.

ثم نظرت إلى ثيابها المستعارة: «عليّ أن أعود وأغير ملابسي». كان ميكيل قادماً عند الرابعة. ولكن عليها قبل ذلك أن ترى بن،

لتسحب كل الأشياء الجارحة التي قالتها، لتطلب منه الصفح وتعترف له بأنها تحبه.

كانت الشمس تحيل العشب الأخضر جواهر متألقة، ومن المكان الذي كانت تقف فيه أمكنها أن ترى حانة «بوشيه آرمس» بجانب الأشجار وبدت لها سيارة الجاكوار. هل هو بن؟

جواباً على سؤالها الصامت، انفتح الباب الرئيسي وخرج منه بن، متجهم الوجه، وتبعته ماغي بشعرها الأشقر الشعث وكأنها تحاول شده، وعيناها الحمراوان منتفختان.

ثم بانت صبية طويلة ذات جدائل داكنة تتطاير حول وجهها المليء بالحيوية والنشاط.

- إنها ابنة ماغي.

لم تدرك كارولين أنها نطقت بهذه الكلمات بصوت مرتفع إلى أن قالت دوروثي: «هذا صحيح، لقد كبرت منذ آخر مرة كنت فيها هنا. إنها في الثانية عشرة الآن. اسمها «أنجلا»، أي الملاك، بالرغم من أنها ليست كذلك. فهي شيطانة كبيرة، ومع ذلك هي نسخة عن أبيها، ألا تظنين ذلك؟».

اليد العملاقة التي اعتصرت قلب كارولين جعلتها تشعر بالغثيان. أما الضفيرتان فكان لونهما أفتح من لون شعر بن القاتم. لكنها ورثت عنه الرشاقة والحيوية البالغة، التي بعثت الحياة في ذلك الوجه المتوثب...

لم تستطع كارولين أن تجيب، لكن دوروثي لم تكن بحاجة إلى إثبات لقولها، وقالت: «لا أحد يمكنه أن يعترف بأنه والد «أنجي» ولكن الكل يعلم بالأمر، فقد رأوهما معاً أكثر من مرة... إذا كنت

تفهمين قصدي. هو لن يتزوجها أبداً ولن يعترف بابنته لأن ماغي ليست من مستواه. حسناً، إنها بطيئة الفهم...».

وربتت دوروثي على رأسها بإشارة ذات مغزى: «إنها غير مهذبة ولا ترد أحداً... لن يرتبط بأمثالها. أنت تعرفينه جيداً، أعني مركزه وكل شيء».

عضت كارولين شفتها بقوة. كانت متلهفة إلى الاعتذار والمغادرة، لكنها لم تستطع الحراك.

رأت بن يقول شيئاً للصبية الصغيرة وهو يضحك، ثم دس يده في جيبه وأخرج قطع نقود معدنية. أخذت تنظر إلى البنت الصغيرة وهي تمرح على العشب المؤدي إلى المتجر، ورأت بن يعود فيلتفت إلى ماغي، وقد أصبح وجهه الآن جاداً بارداً كالثلج.

تابعت دوروثي، غافلة عن اضطراب كارولين: «أنجي، إنه يزورها من حين لآخر. يمكنك أن تريه يأتي ويذهب خارج ساعات العمل، وعادة في هذا الوقت من النهار. ربما يمدها بالمال. لا أدري. ولكن هذا ما ينبغي له، فهو ليس فقيراً كما تعلمين».

حبست كارولين أنفاسها وهي تشعر بيد تعتصر قلبها. لكنها استطاعت أن ترفع قدميها عن الأرض، وتطلق عقدة لسانها الملتصق في سقف حلقها وهي تقول بصوت أجش: «آسفة، علي أن أذهب».

لكي تهرب من هذه الكلمات التي كانت تثقل رأسها.

- هل أنت مضطرة للذهاب؟

كانت دوروثي، كالعادة، مستمتعة بسرد الأقاويل، فمالت برأسها نحو كارولين بينما بن يتحدث إلى ماغي باهتمام.

ـ يمكن للسيد دكستر أن ينقلك إلى البيت عندما ينتهي.

ـ لا.

خرجت هذه الكلمة معزقة من فمها. ثم استدارت وولّت هاربة.

* * *

١٠ ـ هل تُسدل الستارة؟

عندما استدارت كارولين عند منعطف الطريق الضيق الذي واراها عن مرأى القرية، وعن عيني دوروثي المذهولتين، وقفت لتلتقط أنفاسها وتهدىء من خفقات قلبها. كان حاجباها الداكنان مقطبين بعبوس.

ها قد فعلتها مرة أخرى، أليس هذا ما حصل؟ لقد هربت تماماً كما فعلت منذ اثني عشر عاماً مفترضة الأسوأ في الرجل الذي تحب، دون أن تتوقف لسماع ما يقوله.

لم يكن رأي دوروثي دليلاً قاطعاً لأنه مبني على الشائعات وأقاويل القرية، أولئك الذين لا يفعلون سوى مراقبة الآخرين والمبالغة في زخرفة أعمالهم.

وهي كارولين، لن تقترف الغلطة نفسها مرتين بل ستكلم مع بن، وتخبره ما قالته دوروثي وما تضمّنه كلامها، لتصغي بعدها إلى ما سيقول بعقل متفتح وثقة تامة به.

فكرت في العودة إلى القرية والبحث عن بن، أو أن تنتظر ليمر بسيارته بجانبها في طريقه إلى المنزل. نظرت إلى ساعتها. بعد أقل من ساعة، سيصل ميكيل ليأخذها، ربما من الأفضل أن تتابع طريقها

إلى المنزل، وتغير ملابسها. فإذا جاء بن، يمكنها أن تواجهه بشيء من الكرامة والتوازن.

مظهرها يوحي بالتشرد بشعرها المنسدل، وبلوزتها المتسخة، والبنطلون السنمار القصير المبتل والملطخ بالوحل.

فكرت وهي تغوص في البرك الموحلة أن لديها وقتاً لتستحم.

حاولت كارولين أن تتجنب تساقط المطر عليها محتمية تحت الأشجار. ربما عليها أن ترتدي البذلة التي وصلت بها، لم تجفف شعرها.

وتقطعت تأملاتها وهي تتأوه.. كانت تفكر بأشياء تافهة لتطرد من ذهنها تلك الشكوك المخيفة بأنه كذب عليها وسيستمر في الكذب عليها. وأن ما قالته دورولي هو الحقيقة، فالكل يعلم أنه والد ابنة ماغي.

لم تكن تريد أن تشك فيه. لكنها لا تريد أن تدع تلك الشكوك تنمو في ذهنها، لذا كانت تحاول أن تمحوها.

أرادت أن تستعيد تلك الثقة السابقة التي كانت قبلاً قد ملأت قلبها بالفرح والبهجة.

خنقتها الدموع وهي تتحول إلى الطريق المؤدي إلى المنزل. فبعد الذي رأته وسمعته، يستحيل عليها استعادة تلك الثقة. لكنها لن تدع تلك الأفكار السلبية تسيطر عليها قبل أن تسمع ما سيقوله.

رأت عند آخر المنعطف المؤدي إلى المنزل سيارة ميكيل الزرقاء، وكتمت آهة غيظ. كان متكئاً إلى صندوق السيارة بارتياح تام.

كم تمنت لو أنه تأخر بدلاً من أن يأتي مبكراً! سيكون عليها أن تخبره بأنها لا تستطيع أن ترحل قبل أن تتحدث إلى بن، وأن يذهب

بدونها، وستوافيه بمفردها.

ردت عليه التحية مكرهة، فترك السيارة متقدماً نحوها، وعيناه العسليتان تضحكان وهو يضع ذراعه حول كتفيها.

ـ لقد جئت مبكراً.

سمعت لهجة الاتهام في صوتها فحاولت أن تخفقها إذ لم يكن ذنبه: «عليّ أن...».

لم يعد من حاجة للاستمرار، لأن صوت عجلات سيارة أنبأها أن بن قد عاد. وتباطأت السيارة الكبيرة، ورأت عيني بن السوداوين تضيقان، فاتسعت ابتسامة ميكيل وهو يشدد قليلاً من احتضانها: «ما الذي فعلته بنفسك، يا عزيزتي؟ أنت تبدين أشبه بساحرة الحقل». أين هي تلك الرفيقة الأنيقة الرائعة الجمال».

هي لم تكن رفيقته، وإنما زميله. وزفرت في داخلها بعدم صبر وهي تنفض ذراعه عن كتفها، وتضع خصلة شعر خلف أذنها عندما رمقها بن بنظرة استنكار قبل أن يتوقف قرب سيارة ميكيل.

اندفعت كارولين إلى الأمام، وقد بان العزم على وجهها، لكن ميكيل أمسك بخصرها بقبضة حديدية: «انتظري، لما العجلة؟».

ـ أريد أن أتحدث إلى بن... السيد دكستر.

ـ حسناً، أنا غير مستعجل. ولا يبدو عليه أنه سيذهب إلى أي مكان.

هذا صحيح، فقد كان واقفاً، وملامحه الوسيمة القاسية متجهمة. هبط قلب كارولين إذ كان الغضب بادياً على محياه ولم تره من قبل بهذا الشكل.

وفي المقابل بدا ميكيل غافلاً عن ذلك وهما يتقدمان نحو الرجل

المنتظر، وهو يمد يده: «دكستر، يسعدني لقاء الرجل الذي منح اكتشافي بيتاً؟».

وإزاء تحديق بن به باستفهام متوتر تابع: «أتحدث عن لوحة (الحب الأول)، الاكتشاف الباهر للسنوات العشر المقبلة».

وإذ لم يلق منه جواباً، عاد يقدم نفسه: «أنا ميكيل ويترغ. أخبرتني كارولين بأنها أنهت العمل هنا فعرضت أن أوصلها بسيارتي إلى لندن. لقد جئت مبكراً عن الموعد قليلاً، لأنني شعرت بأنها متلهفة للذهاب».

وأدار إليها عينين باسمتين. بدا صوته في أذنيها بالغ الحميمية وهو يتابع: «سنتوقف في الطريق لتناول العشاء. لقد اتصلت وحجزت مائدة في مطعم جيد خارج «باتبري»، لنتمكن من التعويض عن موعد العشاء الذي ألغيناه عندما جئت إلى هنا».

عندما اعتصرها بيده بشكل متملك، انتبهت إلى أن ذراعه حول خصرها. كان ميكيل يعطي فكرة خاطئة كلياً، فتمنت لو تضربه على فمه لتمنعه من التلفظ بكلمة أخرى. شعرت بنفسها تحمر خجلاً وارتباكاً، ثم أحست بموجة باردة تكتسحها عندما أدار بن إليها عينين تنطقان بالازدراء قبل أن يعود إلى الرجل الآخر: «نعم، لقد نهمت الآن».

كان صوته فاتراً وقد اختفى غضبه المكبوت فبدا متعباً ومنهكاً. أشار بيده إلى المنزل: «هل تحب أن تنتظر في الداخل، يا ويترغ؟ أنا واثق من أن الآنسة هاركي لن تتأخر في ترتيب أغراضها. ثم هل تريدها أن تصنع لك الشاي لتشربه أثناء انتظارك؟».

أصبح الآن بالغ الهدوء والتهذيب. وتملك كارولين السخط وهي

تتخلص من قبضة ميكيل وتسير ببطء أمامهما شامخة نحو المنزل. من الواضح أنه كان غاضباً منها ولكنها لم تفهم السبب. هل طعنه إتهامها إياه بالكذب، في كرامته؟ أم لأن الطريقة التي شرح بها ميكيل سبب حضوره، جعلته يظن بأنها اتصلت به وتوسلت إليه ليأخذها؟ أو ربما لأن ميكيل رفع الكلفة بينهما، ووضع ذراعه حول خصرها؟

أم تراه تضافر الأسباب مجتمعة ولّد لديه هذا الانفجار؟

رجحت كارولين الاحتمال الأخير، وهي لا تلوم بن لغضبه. سارت عابسة إلى المطبخ لتعدّ ذلك «الشاي». فلديهما، هما الاثنين، الكثير من التبريرات لإيضاحها، ولكن هل هو في مزاج يسمح له بالاستماع إلى ما تقول؟ أخذت تتساءل وقد راحت أعصابها تتمزق.

تساءلت عما إذا كان سيمنحها عشر دقائق لتغتسل وتغير ملابسها، أم تترك ذلك إلى ما بعد لتبدو في حلة مناسبة فقد تشعر بسيطرة أكبر على مشاعرها التي أخذت تخونها بشكل خطير حالياً. وضعت إبريق الشاي على النار ووجدت صعوبة في وضع كل شيء على الصينية إذ كانت يداها ترتجفان. انزلق كوب من يدها وسقط على الأرض في اللحظة التي دخل بن فيها وأغلق الباب خلفه.

الصمت الذي ساد كان حساساً مؤلماً... أشبه باتهام صامت معلق في الهواء. هناك أشياء كثيرة يجب أن تقال وتُسترجع، وأسئلة كثيرة ينبغي أن تُطرح.

إنها تشعر بالارتباك وبعدم القدرة على الحركة. انعقد لسانها لكثرة ما ينبغي أن يقال، وحارت كيف تبدأ. بحثت عن مكنسة وصندوق القمامة حتى وجدتهما فأخذت تكنس الأرض. وطوال الوقت لم يقل شيئاً وهو ينظر إليها بهاتين العينين الباردتين. كان

إبريق الشاي يغلي بينما هي تضع المكنسة في الصندوق.

كان بن أول من خرق الصمت الذي كاد يدفعها إلى الجنون عندما ذهب يتدبر أمر الماء المغلي ويمدّ الشاي قائلاً: «إذا كنت مستعدة للرحيل قبل أن أحضر، هل كنت ستتركين لي رسالة أيضاً؟».

رتب السكر والحليب والأكواب على الصينية بشكل أنيق، ويداه ثابتتان تماماً. وحمل صوته برودة ليلة قطبية، وهو يجيب بنفسه على سؤاله قبل أن تجد فرصة لتجيبه: «لا، لا أظنك ستفعلين، كما قال رفيقك منذ دقائق، كنت متلهفة للذهاب، وما كان لديك وقت لجلب ورقة وقلم فسبق وأخبرتني بالضبط رأيك بي».

انتهى من إعداد الشاي وحمل الصينية بينما قالت هي متوترة: «أعرف أنك غاضب، كما إنني لا أشعر بالخفة والنشاط، أنا أيضاً».

ونظرت إليه متفحصة علّها تبين شيئاً من الإلفة التي سادت بينهما مؤخراً لكنها لم تجد شيئاً. ذكرت نفسها بأنها الآن امرأة ناضجة تتمتع بذكاء حاد، فقالت بحزم: «نحن بحاجة إلى أن نتحدث».

أنبأتها النظرة التي رمقها بها بأنه وجد قولها مبهماً. أحنى رأسه قليلاً، وقال: «لا أدري لماذا، إذ لا شيء بيننا ليقال. ولكن إذا كنت مصرة على ذلك، سأمنحك خمس دقائق من وقتي بعدها تصبحين مستعدة للذهاب». وهز كتفيه بلا مبالاة.

سار نحو الباب، ثم التفت إليها: «سأقدم الشاي لرفيقك بينما تجمعين حوائجك. آه، ثم هناك شيء آخر، لقد تحدثت مع ماغي بوب عصر اليوم. فاعترفت بأن أباك دفع لها نقوداً لتقول إنني والد طفلتها».

وابتسم لها ساخراً بصوت خال من البهجة: «من المؤكد أنه لحسن استثمار النقود التي رفضت أنا أخذها. أنت لن تصدقيني طبعاً وربما ظننت أنني ضغطت عليها لتقول هذا».

وغادر المطبخ بسرعة كما دخل، من دون أن يدعها تجيب.

* * *

نظرت كارولين إلى صورتها في المرآة، ووجدت أن هذا أفضل ما يمكنها عمله.

غيرت رأيها بالنسبة إلى الزي الرسمي الذي جاءت به، لأنه يظهرها كسيدة أعمال صلبة كما كانت ترغب أن تبدو عندما جاءت. ارتدت تنورة ضيقة رائعة التفصيل وفوقها بلوزة من الكشمير الفاتح اللون. لكن زينة وجهها لم تستطع أن تخفي النظرة الشاردة الحزينة في عينيها وخطوط التوتر حول فمها.

إصرار بن على كلمة (رفيق) حملت الكثير من المعاني فقد ظن أن علاقتها بميكيل أكثر عمقاً من الحقيقة.

ألقت نظرة شاملة في أنحاء الغرفة التي عاشت فيها طوال ثمانية عشر عاماً من حياتها، ثم قررت أن تفكر بشكل إيجابي.

لقد أحبت بن والأهم أنها أصبحت تثق به الآن بشكل مطلق. وما حدثها به عن ماغي بوب كان معقولاً تماماً، ورد على جميع تساؤلاتها.

لقد فشلت خطة أبيها لشراء بن فما هي أفضل طريقة لتشويه سمعته ووضع حد لما كان يقلقه افتتاناً بشاب غير مناسب، سوى أن يدفع ذلك المبلغ لماغي لتقول الأكاذيب؟

لم تكن تلك الفتاة لامعة الذكاء، كما أن قانون منع الشرب أثناء

قيادة السيارات والمارة من ارتياد الحانة فلم يعد يزورها سوى سكان القرية. لذا، كانت النقود شحيحة وكان لدى ماغي طفلة ترعاها.

نعم، بدا الأمر منطقياً للغاية، لكن غضب بن منعه من البقاء ليسمع منها أنها صدقت كل كلمة قالها.

ومع ذلك، لقد وعدها بأن يتحدثا قبل أن ترحل وسيحلان المشاكل العالقة بينهما. عليهما أن يفعلا ذلك، عندئذ ربما تبقى...

إلا إذا كان بن يحتاج إلى وقت للتفكير. إنها تحبه وحتى لو لم يقل إنه يحبها، فإن لديه إحساساً عميقاً نحوها. لقد طلب منها أن تتزوجه وتشاركه حياته، وما كان ليفعل لو أن ما يجمعهما هو مجرد نزوة.

لا بد أن بن ينتظرها. وتناولت حقيبتها وسارت خارجة من الباب وقلبها يخفق.

* * *

اكتسحتها عينا ميكيل الداكنتان بإعجاب وهو يلقي بالصحيفة التي يقرأها من يده: «إذا كنت جاهزة، يمكننا الخروج».

وتناول حقيبتها من يدها التي رعشت فجأة: «يسعدني أن تعودي إلى مكان عملك. لقد اشتقت إليك».

ردت متجاهلة قوله: «لا يمكنني الرحيل بعد. عليّ أن أتحدث إلى بن».

وجالت بنظراتها في أنحاء المكتب وكأنها تتوقع أن تراه وسط الأثاث الرث، ولكن فناجين الشاي المستعملة هي الشاهد الوحيد على وجوده. ردّ ميكيل بابتهاج وهو يسير نحو الباب: «لقد ذهب. لا تقلقي، قال لي (الوداع وشكراً) بالنيابة عنك».

الوداع؟ الوداع النهائي؟ وشكراً؟ وعلامَ الشكر؟ هبط قلبها

وتملكها الذعر. سألته بصوت أجش: «إلى أين ذهب؟»

وكان يجتاز الردهة وهي في أثره.

لقد وعدها أن يتحدث معها قبل أن ترحل. لا يمكن أن يرحل بهذه السهولة... إلا إذا كان شديد الاشمئزاز والتأثر لقلة ثقتها به، فقرر ألا تقع عيناه عليها مرة أخرى، لئلا يضطر إلى سماعها تنطق بالكذب.

وهز ميكيل كتفيه: «لا أدري. قال إنه تذكر لتوّه موعداً ثم خرج بسرعة. كما أننا لن نهتم بإقفال الباب والنوافذ فهو سيطلب من متعهد البناء القيام بذلك. قبل أن يرحل هذا المساء».

هذا المساء؟ هل يعني أنه لن يعود حتى ولو تبقت هنا تنتظره طوال الليل؟

وتذكرت بيأس، عاجزة عن التركيز، أن الأمر محتمل. لعله تذكر حقاً موعداً هاماً لا يمكن تأجيله، وكان هو يريد حقاً أن يناقش الأمور معها، كما صرّح لها من قبل... ولكنه، في هذه الحالة، كان سيترك لها خبراً... كان تنتظر منه خبراً في وقت آخر.

لكنه اخترع قصة الموعد، كانت واثقة من ذلك. واستقرت على هذه الفكرة، شاعرة بالتعب والإرهاق. كل ما في الأمر أنه لا يريد أن يزعج نفسه بالنقاش مع المرأة التي أوضحت رأيها بأعمالها.

وعزز ميكيل فكرتها وهو يجلس بجانبها في السيارة: «طلب مني دكستر أن أرسل إليه فاتورة بالوقت الذي أمضيته هنا، ولكن لا ترهقي نفسك بتقييم الأشياء التي تفحصتها، لأنه قال إنه سيقرر بنفسه ما يستحق الإبقاء عليه».

وربط ميكيل الحزام وأدار المحرك: «ولا أدري لماذا طلب

منك القدوم إلى هنا منذ البداية. ومع ذلك، إذا كان يريد أن يفقد نقوده، فالأمر عائد إليه. هل هناك أشياء كثيرة هامة في هذا البيت؟».

ـ ليس كثيراً.

وذكرت له، بشكل آلي، القطع التي تستحق الاحتفاظ بها للاستثمار، بينما شرد ذهنها بأمور مختلفة كلياً.

ماذا يقصد بقوله إنه سيقرر بنفسه ما يستحق الإبقاء عليه؟ هل كان يعني أنها لا تستحق الإبقاء عليها؟

ربما، ولكن لا شك في أن تعليماته بالنسبة إلى تقييمها لمحتويات البيت تعني أنه لا يريد منها أن تتصل به بعد الآن.

لقد غسل بن دكستر يديه منها، ونظراً إلى ما آلت إليه الأمور، فهي لا تستطيع أن تلومه.

لقد فعل في النهاية ما أراد القيام به من البداية، أي أنه أخرجها من حياته وتخلص من تأثيرها عليه.

* * *

١١ ـ الشمس ترحل من حياتها

جلست كارولين أمام ميكيل في المطعم الصغير الأنيق الواقع في ضواحي «باثبري»، وهي تتساءل بكآبة كيف تصورت أن علاقتهما، هي وميكيل، قد تصل إلى الزواج وبناء أسرة، وإنجاب أولاد. . . وبلوغ الشيخوخة في النهاية.

فهي لن تتمكن قط من أن تحب هو أو أي رجل آخر، بعد أن سيطر بن على قلبها نهائياً. يستحق ميكيل شيئاً أفضل من هذا بكثير.

نظرت بعينين مغرورقتين بالدموع إلى طبق السلطة الخضراء الذي طلبته، وهي تفكر بكآبة في مستقبلها الموحش الخالي من الحب، بينما قال ميكيل: «ألن تأكلي؟ في الواقع، يبدو هذا الطبق عادياً تماماً، كان عليك أن تطلبي طبق البط، فهو رائع».

قالت بابتسامة باهتة وهي تقلّب الخضار بشوكتها دون حماسة.

ـ آسفة، أظنني متعبة.

رغم أن كلمة التعب كانت الصفة الأقرب لما تشعر به، أي الفراغ من الطاقة والأمل. وهي لم تقوَ على إخبار ميكيل أنها كانت تفضل أن يعودا مباشرة إلى لندن، بدلاً من التوقف لتناول العشاء. لكان ذلك أنانية منها لأن ميكيل سيشعر بالجوع لو لم يتناول العشاء.

- متعبة؟ وما الذي أتعبك؟ لا أظنك أجهدت نفسك في العمل في «لانفلي هايز» بينما سبق وقلت إن لا شيء ذو أهمية هناك.

لقد حان الوقت لتكون صادقة وصريحة وتفسر له أن التراجع بالتعرف إلى بعضهما البعض على المستوى الشخصي لن يحدث. وهي مدينة لميكيل بالصدق، على الأقل.

وضعت الشوكة من يدها واعترفت بفتور: «لا أريد متابعة الأمر... أنا وبن... السيد دكستر، نعرف بعضنا منذ وقت طويل، يا ميكيل. منذ اثني عشر عاماً، ربطت بيننا علاقة انتهت بعد شهرين أو نحو ذلك ولم أره بعدها إلى أن جاء ليرى لوحة «الاسون»».

وتنفست بعمق ثم تابعت منهكة: «الأيام القليلة الماضية كانت حافلة بالألم والصدمات».

- يا إلهي.

بدا عليه الذهول، وحدّق إليها متأملاً لمدة طويلة، ثم قال بقسوة: «وما زلت تحبينه، أليس كذلك؟».

منعتها غصة في حلقها من الإجابة، فأومأت. وقال ببطء: «إذا دام حبكما طوال ذلك الوقت، فهو حتماً حب حقيقي».

ومنحها ابتسامة بائسة: «أظن ذلك يجعلني خارج اللعبة... ولكن، لا أظنني كنت فيها حقاً، أليس كذلك؟ كما أنك كنت أكثر تهذيباً من أن تخبريني. هل ما زلنا صديقين؟».

- طبعاً.

أجابته باندفاع ممتنة لتقبله الأمر بهذا الشكل، كما زاد في سكونها أن مشاعره لم تجرح كلياً، كما حدث لها، وهي لا تتمنى ذلك لأسوأ أعدائها.

لكنها لن تفكر في مشاعرها المجروحة المتألمة، لن تسمح لنفسها بأن تفكر في ما كانت ستحصل عليه وأضاعته بقلة ثقتها... لن تصرخ باكية فتجلب الحرج لكليهما... ثم عاد ميكيل يسألها:

- وهل حبك له متبادل؟

اعتصرت قلبها قبضة حديدية. كان الألم لا يُحتمل، ولكنها همست بصوت ممزق: «ربما كان يحبني، ولكن ليس بعد الآن».

- أظنني أحسست بشيء. لقد تشاجرتما، أليس كذلك؟

- شيء من هذا القبيل.

لم تشأ أن تقول المزيد، لكن ميكيل لم يسكت، فاقترب منها، ثم لمس أصابعها لبرهة وهو يقول: «سينسى ذلك مهما كان شجاركما. هو ليس أحمق، يا كارولين. ثم... لا أدري، ولكن... ربما كان لي يد في ذلك. في الواقع، كنا نتحدث أثناء انتظارنا لك. وكان يلقي عليّ أسئلة عن وضعك في المعرض، وعما إذا كنت مستغرقة في مهنتك... وذلك النوع من الأسئلة».

وسكت حين دنا النادل منهما لكي يأخذ الأطباق الفارغة وتاهت شاعرة في أعماقها بانقباض. أما زال بن، حتى في هذه المرحلة، يريد الزواج بها؟ وهل هناك سبب آخر يجعله يحاول أن يعلم ما إذا كان العمل يعني لها الكثير؟ لقد منحها حرية الاختيار، عندما عرض عليها الزواج، بين الاحتفاظ بمهنتها والسكن في لندن واستعمال الكوخ في عطلات الأسبوع، أو جعله مكان إقامتهما الدائم.

اختنقت بالدموع وجاهدت لحبسها. طبعاً، لم يعد يفكر في الزواج. فقد اشمأز منها، ومن قلة ثقتها به. أعلن ميكيل شيئاً لم تسمعه، فانتبهت وسألته: «عفواً؟».

ـ سألتك ما إذا كنت ستتناولين الحلوى.

هزت رأسها، عاجزة عن النطق. لم تستطع أن تأكل، فهي تريد فقط أن تخرج من هناك، أن تعود إلى لندن لتضمّد جراحها على انفراد.

لكن ميكيل طلب قهوة. وكبحت آهة نفاد صبر، فيما تمتم هو: «أشعر بالحماقة. لم يكن لدي فكرة عن أنكما... حسناً، ولماذا تكون لدي فكرة؟ آسف لأنني أعطيته انطباعاً بأننا على صلة وثيقة. وأنه عندما يتقاعد أبي بعد سنة، وأستلم أنا عمله ستصبح، أنا وأنت، زوجين».

واحمرّ وجهه وقال مدافعاً عن نفسه: «حسناً، كانت لي آمالي، وأظن أنني كنت أحلم بنهاية سعيدة. الثقة الهائلة بالنفس هي إحدى نقاط ضعفي الكبيرة، هذا ما يقوله لي أبي دوماً. اسمعي، ما رأيك لو اتصلت بدكستر في الصباح، وصححت له رأيه. سأفعل ذلك إذا كان الأمر مفيداً».

ـ بل الأفضل ألا تفعل.

أجابته بجمود. لقد انتهى كل شيء. لقد جعلها بن تعلم مدى اشمئزازه منها قبل أن تتحدث مع ميكيل.

الفكرة الخاطئة التي أعطاها ميكيل له أصابتها بالغثيان. كانت المسمار الأخير في نعش علاقتهما التي كانت محكومة بالدمار.

وأردفت متنهدة باستسلام: «لن يغير اتصالك شيئاً».

ونظرت ساعتها: «إذا كنت جاهزاً، هل يمكننا متابعة الرحلة؟ أحتاج إلى ليلة أنام فيها جيداً! عليّ أن أكون بحالة تسمح لي بالعمل غداً».

كان من الصعب أن تحظى بنوم هانىء حتى بعد مضي أربعة أسابيع على الرحلة.

عادت ترتدي البذلات الأنيقة، وتضع مساحيق التجميل على وجهها لتستغرق في عملها. وتمضي إجازات الأسبوع مع أي من صديقاتها، أما الليالي...

كانت الليالي عذاباً تاماً إذ كان بن محور أحلامها فكانت تزداد هوساً به. كانت تستيقظ وتمد ذراعيها إليه، ولكنه لم يكن موجوداً أبداً.

كانت تمضي الساعات الباقية قبل طلوع الصباح وهي تحدث نفسها بأن كل شيء انتهى، وتحاول أن تتقبل ذلك. يجب أن تواجه الواقع القائل بأن بن تخلص من ذكراها نهائياً، فهل من رجل رزين يقبل بامرأة تقول له بصراحة إنها لا تثق به؟

كانت تقترب من مرحلة كراهية الذات، إذ كانت عاجزة عن الأكل أو النوم، وتعذّبها ذكرى حبها الضائع.

كانت غاضبة من نفسها. فإذا كانت الفوضى قد عمّت حياتها فلا يمكنها سوى أن تلقي اللوم على نفسها. لا بد أن تفعل شيئاً لإصلاح ذلك، ولن يفعله لأجلها أحد آخر.

مرة، قال لها رئيسها إدوارد ويتبرغ: «تبدين بحالة يرثى لها. إما إنك مريضة ولا تريدين أن تخبري أحداً بذلك، وإما أنني أجهدك في العمل. وأميل إلى الاعتقاد بالأمر الثاني، خذي إذن أسبوعي إجازة، واذهبي إلى أوروبا واستلقي على شاطىء البحر».

أرادت أن ترفض هذا العرض، لكنها عادت ففكرت في أنها ربما تحتاج هذه العطلة لكي تصلح أمورها... لكي تقوم بشيء إيجابي.

ولكن ما هو؟

الاستلقاء على الشاطئ؟ لا يجذبها. سيكون لديها وقت فراغ كفيل بجعلها تسرح في أفكارها وتأملاتها المتعبة. ما تحتاجه حقاً هو عمل جسدي شاق.

ألقت نظرة في أنحاء شقتها الباردة، ثم قررت شيئاً. فاختطفت سترتها وخرجت.

وبعد ساعتين عادت تنوء تحت حمل دلاء الطلاء والفراشي وعينات القماش، وبنطلون رخيص وقمصان قطنية.

الشقة التي لطالما اعتبرتها مجرد مكان للنوم، ستتحول الآن إلى بيت حقيقي.

• • •

أطلت «دانيل بوت»، جارة كارولين، برأسها من الباب المفتوح: «لقد أرهقت نفسك بالعمل طوال الأسبوع، ما رأيك بسهرة رائعة؟ لن أدعك تعملين طوال الإجازة الأسبوعية. أنا أمنعك من ذلك! عليك أن تمنحي نفسك فرصة للراحة».

اللون المشمشي الدافئ، غيّر مظهر الردهة مقارنة باللون الرمادي السابق، وكذلك لون الباب الذي يؤدي إلى غرفة الجلوس.

- هل أعجبك؟

أرادت كارولين التي كانت جاثية على ركبتيها تضع اللمسات الأخيرة على اللوح الخشبي أن تأخذ رأي أحدٍ ما لأن هذه هي تجربتها الأولى في تزيين البيوت، ولم تكن واثقة من صحة عملها.

وقفت بينما قالت دانيل: «أعجبني جداً. لكنني لا يمكن أن أتصورك عاملة. أحضري عمال الديكور وابقي أنت في الفندق حتى

ينهوا عملهم، فهذا ما يليق بك. ولم أرك قط من قبل سوى بالغة الأناقة...».

- هنالك دوماً مرة أولى... ومن المريح ألا أكون مضطرة إلى الاهتمام بمظهري.

وبادلتها كارولين بصعوبة ابتسامتها المريضة. لم تكن دانيل تعلم أنها مضطرة إلى إشغال نفسها بالعمل في كل لحظة من وقتها لكي تمنع نفسها من التأمل الحزين والتفكير بما كان يمكن أن يحصل، وما كانت قد امتلكته فترة قصيرة ثم ضيّعته بغبائها.

- تريدين القهوة؟

- يسرّني ذلك، لكنني لا أستطيع، لدي موعد عند المزيّن، والآن، ماذا عن الليلة؟ يمكننا أن نذهب إلى السينما، ونتناول عشاءً خفيفاً.

لكن كارولين لم تكن مستعدة لسهرة في الخارج، وستكون مرافقة فظيعة: «آسفة. عليّ أن ألصق ورق جدران غرفة النوم. سنذهب إلى السهرة في وقت آخر».

وضعت دانيل يديها على وركيها، رافعة ذقنها: «كارولين مارلي، أنت مخلوقة بالغة العناد...».

وسكتت فجأة عندما تدخل صوت آخر أكثر صلابة: «هذا رأي أدعمه».

- بن!

لم تعرف كارولين ما إذا كانت قد نطقت باسمه بصوت مرتفع، أم تردد الاسم في رأسها. وعلى كل حال، فقد توقف قلبها عن الخفقان. كانت واثقة من ذلك. وكانت دانيل تنظر إليه بعينين

وساديتين منتفختين وفم مفتوح وقد توهجت وجنتاها.

استطاعت كارولين أن تفهم ردة الفعل لأن بن دكستر لم يكن رجلاً عادياً. فقامته أخاذة مفعمة بالحيوية وشعره الأسود الفاحم رائع وعيناه السوداوان كالليل ساحرتان.

كان لا يزال غاضباً. أدركت ذلك حين سرى في ظهرها شعور ببرودة الثلج. وكان العجز يتضح بذلك بكل تأكيد، رغم تسلّحه بابتسامة ظريفة منحها لدانيل التي ازداد وجهها توهجاً وهي تقول: «حسناً، سأخرج إذن».

ومن وراء ظهره، منحت كارولين المذهولة ابتسامة واسعة وهي ترفع إبهامها بإشارة ذات معنى.

ـ هل ستدعيني للدخول؟.

كان صوته ناعماً رقيقاً، إنما دون شك بارداً كالثلج. رفعت كارولين يدها إلى عنقها حيث كان النبض عنيفاً.

كانت قد حلمت بأنها معه مرة أخرى، أحلام مليئة بالحنين والألم واليأس. لكن الحقيقة زادت همّها همّاً. كان وجهه صارماً. بدا عليه وكأن النعيم الذي عاشاه معاً في الأيام القليلة الماضية، قد زال من ذاكرته كلياً.

وقفت صامتة وقلبها يخفق، لأن ذلك التجاذب الجسدي المحتوم بينهما كان دوماً يفرض نفسه.

كان وجهه متوتراً. سار أمامها إلى غرفة الجلوس، وبنظرة متفحصة استوعب القطع القليلة من أثاثها المغطى بملاءات تحميها من الدهان والغبار، والصحف القديمة مبسوطة على أرض الغرفة، ثم تحولت عيناه نحوها، ما جعلها تدرك منظرها فجأة. بنطلون جينز

رخيص وقميص ملطخ بالدهان، وشعرها مشدود إلى الخلف بخرقة بعيداً عن وجهها الخالي من أي زينة.

لكن نظرته المتفحصة الطويلة والبريق المتقد في هاتين العينين السوداوين الضيقتين بعثا فيها أملاً جديداً. ربما، لم يكن الأمل ميتاً بالنسبة إليه.

اجتماع وتآلف روحين دام طوال اثنتي عشرة سنة من الفراق، ورفض لأي شخص آخر... كل هذا لا يمكن أن يزول بين ليلة وضحاها. طبعاً لا.

كان رأسها ما زال يدور، وشعرت فجأة بالوهن في ساقيها، فأرغمت نفسها على قول شيء ما، أي شيء لكي تحطم هذا الصمت المشحون وتعرف سبب وجوده هنا بعد أن رفض التحدث إليها في اليوم الأخير الرهيب في لانغلي هايز.

قالت وكأن عقدة لسانها قد انحلّت، وقد توهج وجهها باحمرار عنيف: «هل بمكنتي... أن أقدم لك قهوة؟».

ـ هذه ليست زيارة اجتماعية.

كان صوته فاتراً، والعينان اللتان سمّرتاها صلبتين غامضتين. دس يديه في جيبي بنطلونه فأظهرت سترته الرائعة التفصيل قميصاً حريرياً ذا لون أخضر فاتح يغطي صدره العريض: «مضى وقت طويل... شهر كامل. وأريد أن أعرف إذا أقمت علاقة مع بوينبرغ».

كانت ملامحه الوسيمة جامدة لكن عينيه تفضحان بازدراء واضح: «هل أنت حامل منه؟».

انفرجت شفتاه بابتسامة لا تشبه الابتسامة بشيء: «أخبريني بأنك لست حاملاً فأتركك بسلام. وأعدك بأنك لن تضطري إلى رؤيتي مرة

أخرى».

ترنحت كارولين على قدميها، وقد شلب منها آخر أمل تتمسك به. ارتجف فمها الناعم بينما أخذ دمها يهدر في أذنيها. ما أشدّه من ألم يأتي بعد كل ما عرفته من قبل: ولم تعرف كيف ستتمكن من احتماله.

وأطبق عليها الظلام، وشعرت بنفسها تسقط.

• • •

١٢ ـ ماذا يريد القدر؟

علا صوت بن وتردد صداه من مسافة بعيدة. كان وجهه يحوم فوقها، مشوّشاً وكأن صباح شهر أيار المتألق قد استحال إلى ضباب كانون.

هزت كارولين رأسها، ووضحت الرؤية أمامها. لا بد أنها تتخيل ذلك الاهتمام العنيف في عينيه السوداوين.

هو طبعاً لا يهتم بها، وهي لن تكون مجنونة لتسمح لنفسها بأن ترجو ذلك. وذكّرت نفسها بتعاسة بأنه لو لم يكن ضائعاً في مشاعره المحمومة عندما كانا معاً، لما كان هنا على الإطلاق.

حاولت التخلص من ذراعيه اللتين كانتا تضمانها وأطلقت شهقة معذّبة. فاحتضانه لها بشدة يعذبها، وزاد من ألمها انتقال حرارة جسده إليها فأخذ قلبها يخفق بعنف، وأنفاسها تتسارع.

ـ كفى.

أمرها بخشونة وهو يخمد مقاومتها الواهنة، أخذها بين ذراعيه ثم سلك طريقه عبر الأبواب إلى غرفة النوم.

ألقى بن بنفاد صبر لفائف ورق الجدران من على السرير الضيق، ثم مدّدها عليه. وقال بإصرار: «إبقي هناك. سأحضر لك كوب

ماء!.

نظرة ثانية منها إلى حاجبيه المقطبين أكدت رأيها في أن اهتمامه بها كان مجرد تخيلات.

فهو يعتبرها مصدر إزعاج لا أكثر، وانهيارها المفاجىء يتطلب التصرف، ولكن كان بإمكانه ألا يقوم بشيء.

دست وجهها في الوسادة وتمنت لو يذهب. الأفضل أن تبقى وحدها بدلاً من أن تراه، كما يبدو الآن. لم تشأ أن تتذكره بهذا الشكل: متبعاً، بارداً، ينضح بالاحتقار لشدة ما يكرهها.

- اشربي هذا.

رفعت نفسها على الوسائد دون أن تنظر في عينيه. لم تستطع أن ترى الازدراء الخالص وعدم الصبر فيهما.

قال بجمود وهي تمسك بالكأس بيديها المرتعشتين وتقربها من فمها:

- لقد أغمي عليك. أعتقد أن النساء يحصل لهن ذلك في المرحلة الأولى من الحمل.

تملكتها نوبة جنونية من الغضب، واندفع الدم إلى وجهها الشاحب، ونهضت من السرير، ثم وضعت كأس الماء على الأرض لئلا تقذفه به.

لقد جاء فقط ليعلم إن كانت حاملاً.

هذا الوضع يبعث على الاشمئزاز!

كيف يستطيع أن يشك بها؟

* * *

أمسك بكاحليها وهو يقول بغضب متزايد: «ما الذي تفعلينه؟».

وقبل أن تجيب بأنها مستعدة لخنقه قبل أن تطرده، أعاد ساقيها إلى السرير، قائلاً: «أنت بحاجة إلى الراحة. مظهرك مخيف».

شكرته غاضبة. بينما بدا هو بعيداً ومتيماً ورائعاً للغاية، كما أنه يستحق عقاباً صارماً!.

سألته بمكر، وهي تراقب رد فعله من تحت أهدابها: «وماذا ستفعل إذن؟».

كانت تريد أن تعذبه وتثأر منه لفكرته الوضيعة عنها.

رأت فكه يتوتر، وبانت خطوط الغضب حول شفتيه وهو يصرف بأسنانه: «يعود الأمر إليه تماماً، إذ يبدو أن المسكين سيتزوجك. لم يكتشف بعد أنك غير قادرة على الالتزام بعلاقة طويلة».

وازداد الاحتقار في صوته: «عندما يقوى الدافع، تتراجعين بذعر، وتكتبين رسالة أو تختلقين شجاراً، وأنا أشك في أن يجعلك تمتثلين لأمره».

الارتباط به لم يكن مشكلة لكن انعدام الثقة هو الذي أفسد الأمور. إنها غلطتها المميتة.

أحنت رأسها وتسمرت عيناها المغرورقتان بالدموع على يديها اللتين بدتا وكأنهما تحاولان أن تمزقا حاشية قميصها الملطخ بالدهان.

لقد طال الأمر بما فيه الكفاية.

وقالت بصوت فاتر بارد: «أنا لم أقم يوماً علاقة مع بوينبرغ».

وأغمضت عينيها الثقيلتين وانتظرت سماع صوت الباب عند خروجه. لقد حصل الآن على المعلومات التي كان متلهفاً لمعرفتها.

ولم يعد هناك ما يقبه لحظة واحدة.

لم تسمع شيئاً عدا الصمت، إلى أن تناهى صوته إليها: «ما سبب ذلك إذن؟».

جازفت بإلقاء نظرة إليه عبر أهدابها الكثيفة وقد تنحت فمها ملعولة، فقد كانت واثقة من أنه غادر الغرفة في اللحظة التي اطمأن فيها على ما جاء من أجله.

كان يبدو شديد الغضب. نظرت بعيداً وتصاعدت خفقات قلبها. ثم عادت لتستلقي مديرة وجهها إلى الوسائد. لم تعد تحتمل المزيد: «كيف تظنني أقوم بشيء مماثل؟».

تمتمت بضعف وصوتها بالكاد يُسمع. لقد تبدد غضبها، وحل مكانه الضياع الذي سحقها تماماً: «تظن بأنني أخرج معك في الوقت الذي تربطني فيه علاقة جادة بميكيل وشيرع».

- أغضبك الأمر، أليس كذلك؟

كان السؤال ممزوجاً بشيء من التهكم، ثم أصبح صوته جاداً وهو يتابع: «إذن، اختبرتِ الآن صعوبة هذه التهمة. أليس كذلك؟ أن يراك الشخص الذي أحببت أهلاً لكل عمل حقير».

أحببت.

إنه فعل ماضي. إنها النهاية إذن! وباب الأمل الذي كان موارباً في ذهنها، قد انغلق بعنف الآن.

جرّت نفسها لتجلس، ثم ألقت قدميها على الأرض. عليها أن تضع حداً لهذا الكابوس بأي شكل. ويمكنها أن تتغلب على الصعاب.

هي لن تنساه أبداً ولكن الألم الهائل سيتركها في النهاية.

وسيصبح أثر الجرح في قلبها مضمّداً فتتابع مهنتها لأنها كل ما بقي لها، وستنسى أنها كانت ذات يوم تكنّ له أي نوع من المشاعر.

إنها تعلم ما عليها أن تفعل لتبدأ العمل.

مسحت خديها وقالت بهدوء ناقض العذاب الذي يعتمل في داخلها: «يمكنك أن تذهب الآن. أنا بأتم خير ولا أدري لماذا أغمي عليّ».

وابتسمت ابتسامة متوترة: «غريب! لعل السبب هو رائحة الدهان».

أو عدم استطاعتها الأكل والنوم، ورؤيتها له مرة أخرى، التي حرّكت شيئاً من الأمل في نفسها. لكنها لن تذكر ذلك بكل تأكيد.

- إذن، ربما علينا أن نفتح النوافذ.

وسار في أنحاء الشقة، فوقفت كارولين مفكرة بضعف في أنه سيرحل عندما ينتهي. شعرت بساقيها غير ثابتتين وكان عليها أن تتمسك بالباب عندما لحقت به إلى المطبخ.

وبكت في داخلها وناجته بصمت... إذهب، أرجوك. سأبدأ معاناة طويلة ومؤلمة لكي أنساك مرة أخرى.

كان يتأمل الفوضى المخيفة التي تسود المكان. علب الطلاء المفتوحة، فراشي الدهان العائمة في الدلو، ومماسح الغبار الملقاة على الأرض. كانت «البيتزا» التي طلبتها على حالها. لم تستطع أن تأكلها فمجرد النظر إليها يصيبها بالغثيان.

- عندما عدنا فتقابلنا، بعد فراق طويل، شعرت بأنني مستعد لدفع كل ما في جيبي لئلا تضطري لترسيخ يديك بالطلاوين.

لهذا كان يشملها بنظره، كانت زينة وجهها مكتملة، وشعرها

مسرّح بأناقة، أما الفستان الأنيق فيعبّر عن مركزها كسيدة أعمال كفؤة أرسلها هو لكي تعفّر نفسها بغبار الأشياء القديمة في «لانغلي هايز»، كما أخذت تفكر، متهمة إياه لتشجيعها.

هزت كتفيها بصمت. يبدو أن ما ستقوله قد يستنفد آخر ما تبقى لها من طاقة: «يمكنك أن تذهب الآن».

لكنه تجاهل كلامها. أدار ظهره لها وملأ إبريق الشاي، ثم أخذ يفتش عن الفناجين. لم يجد الحليب، وإنما علبة فارغة فألقى بها في القمامة.

- ثلاجة فارغة، و«بيتزا» يغطيها العفن... تعرفين تماماً كيف تهتمين بنفسك.

أزاح جانباً كومة من الصحف القديمة، و«البيتزا» الأثرية، ثم وضع فنجاني الشاي على مائدة صغيرة مربعة، وسحب كرسيين، ثم قال آمراً: «اجلسي».

أطاعته بعد أن وجدت ذلك أسهل من الجدل، لكنها قالت له: «لا حاجة بك لكل هذا... تعد الشاي وتدور في الأنحاء. يمكنني أن أعتني بنفسي».

- هذا واضح.

بدت لهجته جافة، ثم انخفض صوته واعترف بصوت أجش: «لا أحب أن أراك بهذا الشكل... شاحبة مرهقة».

لوت كلماته قلبها، لكنها لم تشأ أن تدع نفسها تحلّل ما هو غير ظاهر. رفعت فنجانها بكلتي يديها ثم أخذت رشفة من الشاي الساخن، ثم أخرى حتى شعرت لأول مرة منذ دخل شقتها، بأنها أكثر من مجرد حية.

بعد أن انتعشت بما يكفي، ألقت عليه السؤال الذي كان يشغل ذهنها: «من هو والد ابنة ماغي بريب. هل أخبرتك؟».

- لقد سبق وظننتِ أنه أنا.

ذكّرها بجفاء ثم دفع فنجانه جانباً باشمئزاز ولم تعرف ما إذا كان اشمئزازه من الشاي الخالي من الحليب أم منها هي، ورجحت الاحتمال الثاني.

- لا.

ترك فنجانه على المائدة بينما كانت هي تتابع: «ليس الآن، ليس بعد أن أخبرتني أن أبي دفع لها نقوداً لتكذب. أعترف بأنني صدّقتها منذ اثنتي عشرة سنة. وعندما قال أبي إنه أعطاك نقوداً لكي ترحل بعيداً... لم أستطع تصديق ذلك وخصوصاً، عنك. كنت أظنك تحبني كما أحبك. ثم، طبعاً، جاءت تلك الصدمة. اقترح عليّ أن أسأل ماغي عن والد طفلتها: ربما ما كان لي أن أفعل، ولكن فكّر كيف كنت... كنت في السابعة عشرة فقط، ومفعمةً بالمشاعر. أنت سافرت، وغرس أبي هذه الشكوك في رأسي. كان علي أن أعلم. حسناً، أنت تعلم ما قالته».

رفعت كارولين عينيها فرأت بن ينظر إليها. كانت نظراته الملتهبة تحوم على وجهها، وشعرت بعضلات كتفيها تسترخي. فحتى ولو لم يعد لديه أيّ شعور قوي نحوها لأن قلة ثقتها به قتلت شعوره، إلا أنها أحست بارتياح لإفراغ صدرها من كل ذلك.

أخذت نفساً عميقاً: «في ذلك اليوم الفظيع... عندما قلت لك إنني لا أستطيع أن أتزوجك لأنني لا أستطيع أن أثق بك... وبعد أن ذهبت بسيارتك، ذهبت أنا إلى ماغي لأعرف الحقيقة منها. وكنت قد

قلت لي أن أستمع إلى نداء قلبي، هل تذكر؟

هذا ما فعلته. فقلبي حدثني بأنك قلت الحقيقة. لست من القسوة لتخون أحداً. السؤال الوحيد كان (لماذا كذبت مافي؟). كنت سأسحب الحقيقة منها. لكن المطر بدأ ينهمر، فلجأت إلى بيت دوروثي ورأيتاكم معاً، أنت ومافي والفتاة. كانت دوروثي تنظر إليك وهي تتحدث عن والد الطفلة وتتحدث عنه وكأنني أعرفه».

- ساورتك الشكوك مجدداً؟

- ليس تماماً. عدت إلى البيت لأنتظرك. وكان ميكيل قد اتصل بي قائلاً إنه في المنطقة وهو سيعيدني إلى لندن. كنت أعلم أننا لا نملك وقتاً كافياً، وإن علينا أن نتحدث.

ونظرت إليه تريده أن يصدقها: «كنت لأصدق كل ما تخبرني به ولكنك كنت غاضباً، طلبت منك أن نتحدث قبل أن أرحل وعندما نزلت بعد تغيير ملابسي كنت قد رحلت».

مضت دقيقة مؤلمة لم يجب فيها بشيء. أثار الصمت أعصابها فنهضت لتجمع أواني الشاي وتشغل نفسها بذلك، فهب هو أيضاً واقفاً.

عضت كارولين شفتها. سيرحل الآن. لم تستطع محاولتها تبرير تصرفاتها واعتذارها إذابة الثلج بينهما، ولكن، أتراها توقعت أن يحدث هذا حقاً؟ أخذت تفكر بتعاسة. وما إن ابتعدت، حتى أخذ بن الصينية من يدها وأعادها إلى المائدة بعنف، ثم أدارها لتواجهه:

- جيريمي كيرتس هو والد طفلة مافي. هذا هو السبب الذي جعل دوروثي تحدثك عنه وكأنك تعرفينه، وهذه هي العادة بالنسبة إلى سكان القرية... فهم لا يذكرون الأسماء، وإنما يذكرونها ضمناً.

بالإشارة، وذلك لئلا ترفع على المتكلم دعوى ذم وتشهير.

جيريمي؟ آه، يا إلهي! كان على علاقة بمافي التي لا تناسبه بينما كان أبواهما يخططان لتزويجهما! وقد قبل جيريمي بهذا لأنها هي كارولين، زوجة مناسبة والمسكينة مافي ليست كذلك. وكان الأمر فضيحة لو أن النتيجة لم تكن مدمرة بهذا الشكل.

أصبحت يداه اللتان تقبضان على ذراعيها رفيقتين. سكنت بين يديه وقد تلاشت قدرتها على الكلام نتيجة المشاعر التي أخذت تعتمل في قلبها.

قال بجفاء: «كانت صدمة لي أن أراك تستعدين للرحيل من دون وداع. لقد حصلت أخيراً على الحقيقة من مافي وكنت عازماً على أن أجعلك تصدقين ذلك، لكي تقبلي أن تكوني زوجتي. لكنني شعرت بأنه لم يعد بإمكاني الإصغاء إلى ميكيل وينبرغ لحظة أخرى. تكرت في الأشياء التي كان يقولها، ولو أنني بقيت معه لكسرت أسنانه».

أحاط وجهها بيديه وعيناه تنظران إليها بحرارة جفت لها شفتاها، ثم تمتم: «قلت إنك تحبينني بينما كنت على علاقة جادة بميكيل وينبرغ. في الواقع، هذا ما فرّق بيننا».

أخذت كارولين نفساً عميقاً مرتجفاً. إذن، لقد أفسد ميكيل الأمر، بثقته المفرطة بنفسه. بن لم يتخلّ عنها، فقد ذهب ليبحث عن الحقيقة، عازماً على بذل جهده لكي يجعلها تصدقه.

انهمرت الدموع من عينيها. كان الإغراء بأن تلقي برأسها على صدره هائلاً. قاومته وهي تقول بصوت هادىء: «أنا وميكيل زميلا عمل. وبعد طلاقه أصبحنا صديقين، مجرد صديقين».

وابتلعت غصة في حلقها.

هل سيتبدّ بن ما قاله ميكيل ويقبل في أعماقه وقلبه، أن ما تقوله هي هو الحقيقة؟ ولكن ما الذي يدفعه إلى ذلك وهي التي صدّقت الأسوأ عنه لسنوات طويلة؟

ـ لم نكن قط أكثر من زميلين وصديقين. أقسم لك بذلك.

وسارت مبتعدة عنه قبل أن تعلم أن ما تقوله بعيد عن الإقناع. وانحنت كتفاها النحيلتان وشبكت ذراعيها على صدرها وقد تملكتها التعاسة والذعر: «ولكي أكون صادقة كلياً معك، ابتدأت أدرك أنه كان يريد أكثر من الصداقة. ولأن العمر غفلة، أخذت أفكر في أننا يمكن أن نوثق علاقتنا لنرى مقدار انسجامنا معاً... وإذا بك تعود إلى الساحة».

اختنق صوتها في حلقها، لكنها جاهدت للتغلب على ذلك: «لكني أدركت أن العلاقة لن تنجح، لا مع ميكيل ولا مع أي رجل آخر. لقد تغلغلت في كياني، وما لبثت أن أدركت أنني لم أتوقف عن حبك يوماً، ولن أتوقف، بالرغم من أنني ظننتك تبغضني. أخبرني ميكيل بما قاله لك. وأخبرته بأنني أحبك. قال إنه أوحى لك بأمور خاطئة، وعرض عليّ أن يتصل بك في اليوم التالي ويوضح لك أنه قام باستنتاجات واهية لكنني لم أوافق لأن ما فعله أنا لا يقبل الصفح».

سادت فترة صمت. وشعرت كارولين بأن سيطرتها على نفسها شارفت على الانهيار. ثم، إذا بها تشعر بيديه تلمسان كتفيها برفق. أطلقت زفرة ارتياح طويلة مرتجفة، ثم مالت عليه بضعف، وأغمضت عينيها، بينما ارتفعت يداه تفكان شعرها.

أسدل شعرها على كتفيها وأدارها لتواجهه، وقال بصوت مهتز:

«هناك دهان على شعرك».

ـ أعلم.

كانت عيناها حالمتين، غامضتين ويداها على صدره، كانت تشعر بدفء جسده من وراء قميصه الحريري.

ورفع يدها وقبّل معصمها حيث كان الدم ينبض بعنف.

ـ مظهري فوضوي تماماً.

وجدت صعوبة في الكلام، وأخذ قلبها يخفق وجسدها يرتجف: «أحقاً؟ لم ألحظ ذلك».

وخشن صوته عندما أمسكت بيده، وأخذت تقبّلها: «أنا أحبك!».

إنهما معاً الآن، كما أرادهما القدر.

كانت تسمع خفقان قلبه كقرع الطبل وهو يقول لها: «سأحبك وأرعاك طيلة حياتي، دون التفكير في أي شيء آخر. أنا وأنت فقط وما نشعر به نحو بعضنا!».

لفّت كارولين ذراعيها حول عنقه قائلة: «إبقَ معي يا حبيبي...».

• • •

دعت شمس أيار الدافئة كارولين إلى الخروج من الكوخ حتى قبل أن تبدأ عملها الصباحي المعتاد. البهجة التي كانت تشعر بها جعلتها تغمض عينيها وتبتسم... كانت الغابة تضج بالطيور المغردة، والحديقة قد أزهرت بعد أن زرعتها بنفسها.

بعد يومين، سيحتفلان هي وبن بعيد زواجهما الأول.

سنة من البهجة، من السعادة الخالصة. لم تكن لتصدق قط أن

بإمكان زوجين أن يحققا هذا التقارب وألا يفترقا أكثر من ساعة أو ساعتين.

كانت تسافر معه حينما يذهب، فتقيم مؤقتاً في شقته في لندن، وتحضر معه المناسبات الاجتماعية، كما تمضي مدة أطول في الكوخ هنا وقد جعلته بيتاً حقيقياً وكانت تتفقد الأولاد في البيت الكبير.

كانت هذه حياتها الرائعة، كما أعلنت تفكر راضية وهي ترفع وجهها إلى الشمس، مستنشقة الهواء النقي المعطر. غداً صباحاً سيكون بن هنا وستزف له الخبر الذي لم تصدقه هي نفسها.

للمرة الأولى ترفض دعوة بن لمرافقته في رحلة إلى أمستردام. وقد غشت عينيه خيبة الأمل لفكرة افتراقهما لمدة تزيد عن الأسبوع. ثم عاد فقال بابتسامة عريضة: «وماذا ستفعلين وحدك؟».

- سأمضي عدة أيام في السوق.

وكانت هذه هي المرة الأولى التي تكذب فيها عليه، ولم يكن شعورها مريحاً: «ثم أذهب إلى الكوخ لأعتني بالحديقة. وافني إلى هناك».

وكان هذا الجزء من حديثها صادقاً.

سيصل غداً. وكان الصبر ينفد منها. تريد أن تخبره وتعترف له بأنها كذبت وتوضح له أنه كان ضرورياً حتى ولو لم تكن قادرة، هي نفسها، على استيعاب الحقيقة.

• • •

بعد ساعتين، وقفت كارولين لتريح ظهرها المتصلب. كانت الشمس تحرق ذراعيها العاريتين، والجينز القطني الأبيض لم يكن

فكرة مثالية أثناء اعتنائها بالحديقة، قررت ذلك وهي تنفض، دون فائدة، البقع عن بنطلونها وتدس قميصها القطني الأزرق تحت حزامها.

أزاحت شعرها خلف أذنيها، ثم اتجهت إلى الظل. سارت نحو الطريق الضيق ودارت حول الكوخ وصولاً إلى المرج الأخضر ثم عبرت البوابة متجهة إلى حافة الجدول.

هي وبن يمضيان معظم الوقت هنا عندما يكونان في الكوخ. هذا المكان الذي كانا يأتيان دوماً إليه في أمسيات الصيف الرائعة في الماضي البعيد.

كانا يفتقدان بعضهما البعض. وتملكتها قشعريرة، وإذا بأنفاسها تحتبس. لم تره يأتي لكنها أدركت أنه هنا.

استدارت وقد أشرق وجهها، وذلك في اللحظة التي دخل فيها الساحة.

- بن!

وركضت نحوه بخفة لتلقي نفسها بين ذراعيه، فرفعها وأخذ يدور بها، ثم عانقها بنهم.

قالت وهي تلهث: «لم أكن أتوقع وصولك قبل الغد».

ضحك لها وأخذ يداعب شعرها: «لم أجدك في الداخل، ولا في الحديقة... ما جعلني أدرك أنك هنا».

ابتسمت: «لدي بشرى لك».

نطق الإثنان بالجملة نفسها في الوقت نفسه ثم قالت كارولين: «قل أنت أولاً. لأن بشارتي أفضل».

جذبها إلى ضفة الجدول: «لا أراهن على ذلك. والآن، هل

تعتبرين أن مكاننا المفضل بيتنا الحقيقي؟».

أومأت بجد ساخر، لكن عينيها كانتا تتراقصان.

- هذا صحيح. هل انتهى كلامك؟ إنه دوري الآن!

وضع إصبعه على فمها وتابع: «لم أتكدر كثيراً عندما رفضت مرافقتي إلى أمستردام. لقد افتقدتك بجنون، لكن ذلك أعطاني الفرصة لأحضر لك المفاجأة. سأنجز معظم أعمالي منذ الآن في البيت. لا رحلات عمل إلى أوروبا بعد اليوم. ستكون كل الأسفار التي نقوم بها في المستقبل... عطلات... في أي جزء من العالم يعجبك. وطبعاً... يتطلب الأمر تجهيز البناء بغرفة فقط تحوي أجهزة الاتصالات الالكترونية. هل يناسبك؟».

- إنها فكرة مثالية.

ولفت ذراعيها حول عنقه قائلة: «إنه يتلاءم مع ما أريد أن أخبرك به».

- وما هو؟

- أنا حامل. لم أكن واثقة، إنما الآن أنا واثقة تماماً. لم أذهب للتسوق، فلدي كل ما أحتاجه. لقد أجريت اختباراً للحمل.

أخذ بن يحدق إليها بصمت، فقالت: «ألست مسروراً؟».

وكانت تعلم أنه لا بد كذلك، فقد كانت تعرفه كما تعرف نفسها. وأثبت ذلك عندما أشرق وجهه بابتسامته العريضة التي تدعلها: «أنا سعيد للغاية، يا غاليتي... بل أسعد مخلوق... يا كيروا».

- وهذا ليس كل شيء، فأنا حامل بتوأم.

ولاحت البسمة وراء التعبير الذي كست به وجهها.

عانقها بشغف بالغ، وعندما استطاعت التخلص من ذراعيه قالت وهي تلهث: «سيكون علينا أن نحضر مكاناً للعب.. وبما أنهما سينشآن في الريف، سيحتاجان إلى جياد صغيرة. ما يعني بناء اصطبل. وإذا أنجبنا المزيد سنحتاج إلى غرفة نوم أخرى أو اثنتين، وحمام إضافي. وهكذا سيكبر البيت... هل لديك مانع؟».

أحاط خصرها بذراعه ثم قادها معه نحو الأرض المعشوشبة: «يمكنني أن أحتمل كل ما يكبر... ويصبح أفضل».

وتسللت يده إلى بطنها: «كحبي لك تماماً. يكبر ويصبح أفضل يوماً بعد يوم».

• • •